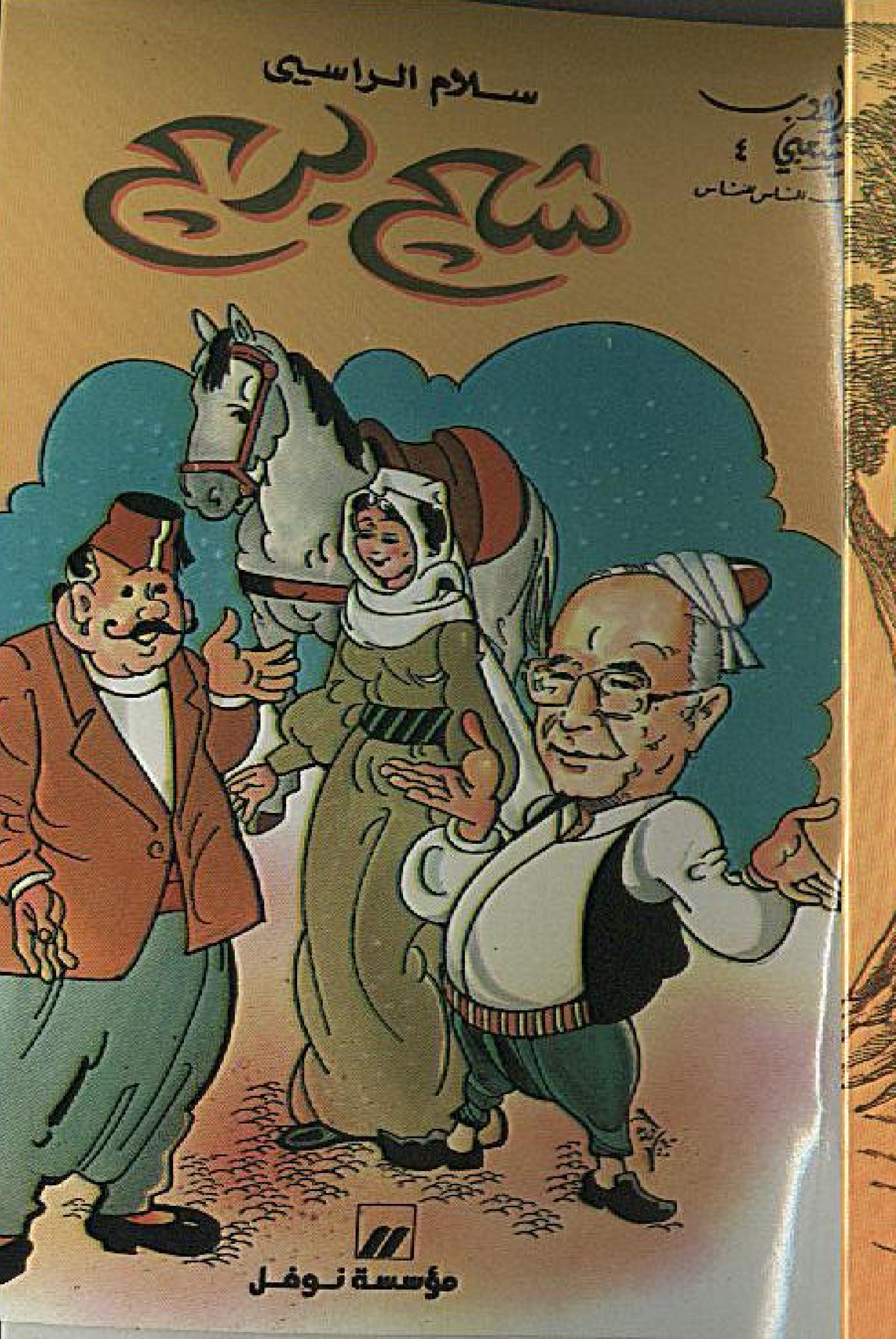
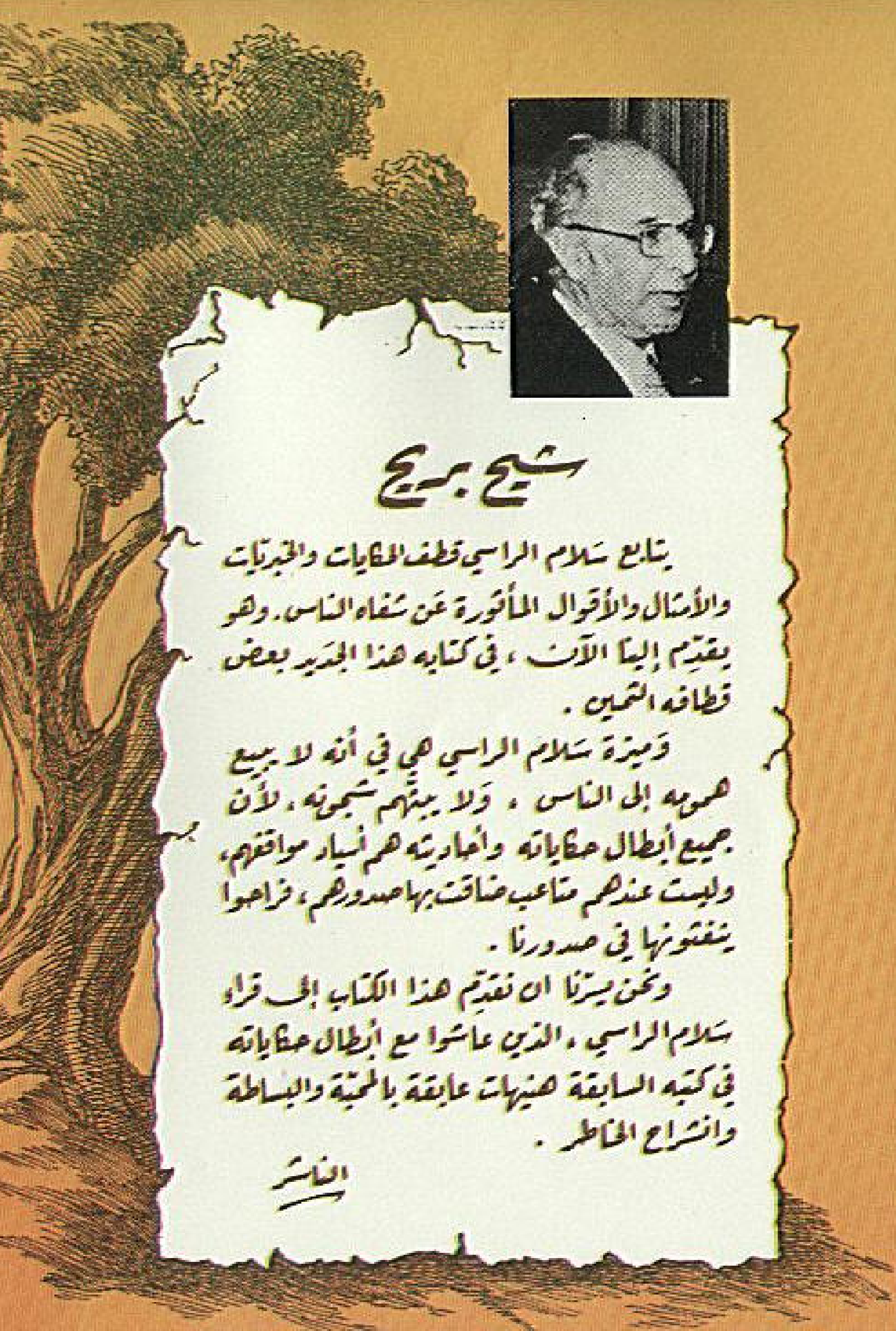

سلام الراسي
شيح بريح
مؤسسة نوفل


شيح بريح
يتابع سلام الراسي قطف الحكايات والخبريات
والأمثال والأقوال المأثورة عن شفاه الناس. وهو
يقدم إلينا الآن، في كتابه هذا الجديد بعض
قطافه الثمين.
وميزة سلام الراسي هي في أنه لا يبيع
همومه إلى الناس، ولا يبثهم شجونه، لأن
جميع أبطال حكاياته وأحاديثه هم أسياد مواقفهم،
وليست عندهم متاعب ضاقت بها صدورهم، فراحوا
ينفثونها في صدورنا.
ونحن يسرنا ان نقدم هذا الكتاب إلى قراء
سلام الراسي، الذين عاشوا مع أبطال حكاياته
في كتبه السابقة هنيهات عابقة بالمحبة والبساطة
وانشراح الخاطر.
الناشر

الطبعة الرابعة

١٩٨٩



شيح بريح

يُحكى ان فارساً التقى تاجر رقيق معه جارية حسناء، فسأله عن اسمها .

قال التاجر : « اسمها « شيح » ، على اسم جارية « المأمون » .

قال الفارس : « وفرسي هذه إسمها « ريح » على اسم فرس سيدنا سليمان الحكيم التي استبدلها بألف فرس من صافنات الخيل ، فكم تدفع لي « فرق سعر » حتى أبيعك فرسي « ريح » وأشتري منك الجارية « شيح » ؟

قال التاجر : « لا بلْ ، شيح بريح ، « أي ، الجارية بالفرس ، بدون فرق سعر » .

فصارت هذه العبارة قولاً شائعاً مأثوراً .

القِـــرْش نِصْ

❖

أهل جبل عامل ، كان عندهم رأي خاص في الدعاوى والمحاكم يعبّرون عنه بقولهم : « الخسران بيخرب بيتو ، والربحان ... شيح بريح » .

ثم وسّع أهل جبل عامل مفهوم تعاملهم مع هذا القول المأثور ، فصاروا يستعملونه في التعاطي مع مختلف الإدارات والزعامات والمؤسسات ، أي أنهم صاروا ، في أحسن الحالات ، لا يأملون ان يحصلوا على أكثر من « شيح بريح » ، أي : لا لهم ولا عليهم .

* * *

كانت عندي حكاية قديمة مبعثرة أهتم بلملمة بعض أجزائها وطراطيشها ، من أجل إعادة صياغتها ، فقيل لي ان رجلاً في محلة « ساقية الجنزير » ما زال يُمسك بأحد أطرافها .

وعندما دخلت على الرجل ، سألني من اين أتيت .

قلت : « من راس بيروت » .

قال : « أنتم أهل راس بيروت أصلكم مزارعون تبيعون الخضار على ظهور الحمير ... وما تربحونه في الصباح تخسرونه في المساء ... ترفعون أسعاركم قبل الظهر : فتكسد بضاعتكم بعد الظهر ، وتبيعونها بنصف ثمنها ، وترجعون في المساء الى بيوتكم « شيخ بربح » : فتزهد بكم نساؤكم ولا يُحمد مساؤكم . »

قلت ، لا حول ولا قوة ... لَحِقتني « شيخ بربح » من كعب جبل عامل الى راس بيروت .

ثم سألت نفسي ، أي صفقة او سفرة او مهنة او وظيفة او مرافقة او مصاحبة او مجاورة او مناظرة ، مارستُها او عالجتُها او تولّيتُها او تعاطيتُها ، في حياتي ، ورجعت منها بأفضل من « شيخ بربح » .

* * *

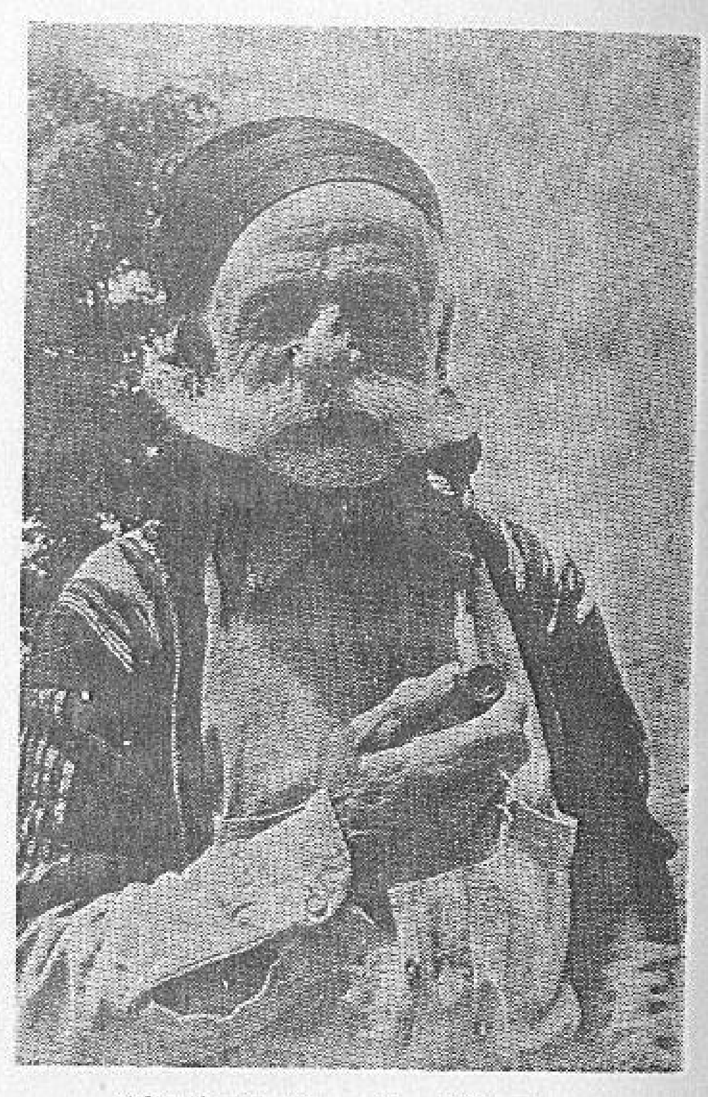
في مقابلة تلفزيونية ، ناشدت هُواة أنتيكا الحكايات والخبريّات ان يوافوني بما عندهم من هذه المأثورات ، وتعهّدت ان أُهدي نسخة من كتابي الأخير « حكي قرايا وحكي سرايا » الى كل مَن يُهديني مأثورة جديدة مفيدة .

ورحت أقبض حكايات كاسدة وخبريّات فاسدة وأقوالاً مُلفّقة وأمثالاً مرقّعة ، وأدفع كتباً موقّعة مع مجـاملات واحترامات وتبجيلات تبلغ أحياناً حدود المبالغات ، حتى أنفقت ونفقّت ما كان عندي من النسَخ .

وكان لا بُد ، بالتـالي ، من إجراء جردة حساب ، فوجدت ان حساب الخسائر قد ضاعف حساب الأرباح ، وصحّ بي أخيراً قول المثل : « القرش نيصّ » والحبر للزنّار ! »

* * *

فيا سادتي الكرام ، هذا كتابي الجديد « شيح بريح » أضعه بين أيديكم الآن ، وفهمكم كفاية ، لأن المثل يقول : « مَن يجعل تجارته الياقات لا يقبض غير المجاملات » .



بعبونو قصة لبنـــان   منقراها منعرف شوكان

[illegible]

[illegible]

القسم الأول

من كل دقن شعرة

عاش ، قديماً ، في إبل السقي واعظ بروتستانتي اسمه المعلم مخايل « دَقَر » عقله عند عذاب الآخرة وأهوال الجحيم ، فإذا اعتلى منبر الكنيسة حار وذار ورجع مرجوعه الى الكلام عن مخاوف جهنّم التي لا تنطفىء نارها ولا يخمد أوارها ، و « هناك البكاء وصرير الأسنان » .

فوقف ، بالتالي ، رجل اسمه عبد الله دمّوس ، وقال : « اذا كان عندك حكي عن السما ، هات ... يما بخاطرك ! » .

عَبد الفتّاح وسِتّ المِلاح

❖

خــلال انتخابات سنة ١٩٥٧ توليّت بعض الشؤون الانتخابية ، لمصلحة المرحوم اميــل البستاني ، وذلك بحكم وظيفتي في المصلحة الوطنية للتعمير ، التي كان البستاني رئيسها في ذلك الوقت .

وفي أحـــد الإجتماعات سمعت البستاني يقول : « مَن يضمن أصوات برجا وشحيم يضمن فوزه بالنيابة . »

فقلت : « عليّ اذن بأصوات برجا وشحيم » .

لكن أهل برجا اشتلقوا بأننا نلعب على الحبلين ، ونحاول ان نستفيد من الطرفين ، فقال أحد شيوخهم :

— « يا عمّي ! نصيحه بلاش من ابن حلال ، ما تحاولون ان تربحوه في شحيم ستخسرونه في برجا ، ويصح فيكم بالتالي قول المثل : « ما ربحناه من خدّ ست الملاح ، خسرناه في طرف عبد الفتّاح » .

فقلت : « وكيف كان ذلك ؟ »

قـــال :

– يُحكى ان أحد ملوك الزمان كانت عنده ابنة اسمها « ست الملاح ». ذاعت أخبار جمالها ، فتاق شبان ذلك الزمان الى استراق مشاهدتها ، لكن أسوار أبيها كانت تحجب عنها الأنظار ، فلا يراها الناس إلا بعين الخيال .

وفي أحد الأيام ، نُودي في المدينة ان « ست الملاح » تشكو من دُمّلة في خدها ، فمَن يعرف اي دواء لهذا الداء فليتقدّم به الى والدها ملك الزمان .

فقال أحد الشبان ، هذه فرصة العمر ، فإمّا أن أظفر بما لم يظفر به أحد قبلي قَط ، وإمّا ان أموت كما يموت مشاهير الناس .

ودخل الشاب ، على ملك الزمان وقال : « عندي دواء لابنتك ايها الملك » .

قال الملك : « وما هو هذا الدواء ؟ »

قال الشاب : « لُعابي ، يا سيدي الملك ، فإن الأعشاب التي أتناولها ، دون سواها ، بصورة دائمة ، تجعل في لعابي قوة على شفاء الدمامل الخبيثة ، فاذا سمحتم لي بامتصاص

الدُمّلة من خدّ ابنتكم « ستّ الملاح » ، بحيث يختلط لعابي بدمها ، شفيت في الحال » .

ففكر الملك قليلاً ، ثم قال :

— « ولكنك تعلم ، ايها الشاب ، ان ابنتي لها حصانتها وكرامتها ، فاذا كنت صادقاً وشفيت الفتاة ، كافأناك : واذا كنت كاذباً ، أعدمناك » .

قال الشاب : « بكل طيبة خاطر » .

وأقبل الشاب على خدّ الفتاة وراح يمتصّ الدُمّلة بشغف ، اذ نجحت حيلته في تقبيل خدّ « ست الملاح » وكان الله في عونه ، فخف احمراره وزال ازمهراره ، والملك واقف يراقب ، ففرح بنتيجة المعالجة وكافأ الشاب على عمله .

* * *

ثم حدث ، بعد مدّة ، ان مرض رجل من أقارب الملك ، اسمه « عبدالفتّاح » ، وساءت حاله ، فقلقت أفكار الملك عليه وجاء يعوده ، وسأله عما به ، فأجاب عبدالفتّاح :

— « الرجال ، مقاتلها في أسافلها — كما تقول الأمثال — فاذا تورّمت الجوارح في أضيق المطارح ، تعذّر تشخيص الداء ، بسبب الحياء . والذي أشكو منه الآن هو دُمّل خارجي يكاد يسدّ مخارجي ، والرجل الكريم يخاف من استخفاف

الحريم : اذا كشف عن مصيبته أمام خاصته ؛ لأن شماتة الأعداء أخف ضرراً من شماتة النساء ، لذلك قيل عن الرجل : أكرماه : جبينه وقفاه » .

فقال الملك : « كفى ! يا عبد الفتاح ، فهمت مصيبتك ، فقد قالت الحكماء ان الكريم هو الذي يصون شرفه وطرفه ، وما دام شرفك بخير ، فان طرفك ، ان شاء الله ، بخير ، سأستدعي اليك الآن طبيباً متخصصاً في معالجة الدمامل ، والشفاء مضمون بإذن الله . »

وأمر الملك بإحضار الشاب الذي عالج ابنته الى بيت قريبه عبد الفتـــاح .

فقال الشاب لنفسه ، ربما أصاب ابنة عبد الفتاح ما أصاب ابنة الملك « ست الملاح » : فحضر مسرعاً .

وعندما دخل ، أمره الملك ان ينحني وراء عبد الفتاح ، ويمتص الدُمّلة حيث هي .

فامتثل الشاب مُكرَهاً ، وقال :

— « ما ربحته من خد « ست الملاح » خسرته في طرف عبد الفتاح ! »

فجرت عبارته مجرى الأمثال .

شهَاب الدّين ... وأخوه

❖

تقلّبتُ عشرين سنة في وظائف الدولة ، ولم أستطع ان أصير « ابن حكومة » ، بل بقيت ابن قرية « متعدياً على الكار » .

وحدث انني ذهبت ، يوماً الى جزين ، في مهمّة حكومية ، وبينما كنت عند المختار ، أتصيّد بعض الحكايات والأخبار ، حسب جاري عادتي ، في استغلال وظيفتي ، لحساب هوايتي ، دخل رجل ، وقال :

— « رفيقك » مقطوع « قرب المعبور » .

واذ لم يكن معي رفيق ، سألت الرجل :

— « وكيف عرفت انه رفيقي ؟ »

قـال :

— « هيئتو متلك ، ابن حكومه ، متعدي عالكار » .

فحبكت النكتة عند مختار جزين واعتذر أولاً وثانياً وثالثاً وقـــال :

– يُحكى ان رجلاً من وجهاء القوم ، كانت عنده ابنة وحيدة ذات جمال ودلال ، تقدم كثيرون في طلب يدها ، فقـــال :

– « صهري ، سانود ظهري » ، هكذا يقول المثل ، لذلك يجب ان أختار لابنتي زوجاً عنده نخوة الرجال وسطوة الأبطال ، فيشتدّ به أزري ويُصان به قدري » .

وهكذا اختار الرجل بالتالي ، زوجاً لابنته عريض المنكبين مجدول الساعدين مفتول الشاربين ، اسمه « شهاب الدين » ، وجعله « صهر بيت » ، وأسكنه معه في منزله .

وصار أخونا شهاب الدين يستيقظ في الصباح ، وبعد ان يتناول فطوره ، يبدأ بارتداء ثيابه ، فيلبس أولاً ، المنتيان ثم الشنتيان ثم القميص ثم الدامر ثم القفطان .

ثم يبدأ في لبس الشروال ، فوق المنتيان والشنتيان ، ويأخذ بتطعيجه من الأمام ، طعجة بعد طعجة ، بحيث يكون الزاف تلو الزاف ، فإذا انتهى من تطعيجه من الأمام بدأ بتطعيجه من الوراء على نفس الترتيب ، ثم يضع « الثقّالة » في أسفله ويلف الزنّار عليه ويعقد الكمر فوقه بكل دقّة واعتبار .

ويضع على رأسه غضاضة « عنبركيس » حولها زناق من الحرير فوق طاقية من المخمل ، ويضع فوقهـا عقالاً من القصب الثمين المشرشب .

ثم يتقلّد اليطقان والدّوشك والشقبان واليغمور والشال والشملكان وسائر ألبسة وأعتدة ذلك الزمان .

ومتى فرغ شهاب الدين من هذه الترتيبات وبدا في عين نفسه كأنه عشرة رجال ، يكونُ حينئذٍ قد حان موعد الغداء ، فيتناول غداءه ، ثم يعمد الى طبنجة وخنجر يشكّهما في زنّاره عن يمينه و يساره ، ويحمل عصاه ويخرج .

فيسأله عمه : « الى اين ؟ »

فيقول : « الى البحث عن أخي الذي فقدته منذ وقت بعيد » .

وطال الحال على هذا المنوال عدة شهور ، كان شهاب الدين ، خلالها ، يصرف نصف يومه في ارتداء ملابسه وتوظيب أسلحته . والنصف الثاني في التفتيش عن أخيه المفقود .

وحدث ذات صباح ان دخل الرجل — عم شهاب الدين — الى دكان حلاق ليحلق ذقنه ، لكنه ما ان اتخذ مكانه على كرسي الحلاقة ، حتى مدّ له الحلاق حديثـاً في السياسة ، وراح يجرّ الموسى على ذقنه جرّة بسيطة ، ثم يرفع يده ويتابع حديثه ، فيجرّ الرّجُل ويجرجره ويأخذه ويردّه ، ثم يفطن الى عمله ،

فيجرّ الموسى جرّة ثانية ، لا يلبث بعدها ان يرفع يده ويرجع مرجوعه الى الكلام : فيجزم ويحزم ويؤكد ويقطع ويقدم الأمثلة ويضرب الأمثال ، حتى فرغ صبر الرجل فنهض وقال :

— « تكفيني ، اليوم ، هذه « القاطوعة » من حراثة ذقني فدع ما تبقى الى نهار آخر » .

وقفل الرجل عائداً الى بيته ، واذا بصهره شهاب الدين ، وقد فرغ لتوّه من ارتداء ملابسه وحمّل أعتدته ، يستنفر نفسه للخروج من باب المنزل .

فسأله الرجل : « الى اين ؟ »

قال شهاب الدين : « لمتابعة التفتيش عن أخي » .

قال الرجل : « انا أدلّك على أخيك ، انه حلاّق في الشارع الفلاني » .

قال شهاب الدين : « وكيف عرفت انه أخي ؟ »

قال : « وجدته « أض ... » منك ، فقلت ، لعلّه أخوك »

قال شهاب الدين : « هذا إذن ، ليس أخي : اذ لو كان هذا أخي ، لما كان « أض ... » مني : لأن معلم المدرسة التي تعلّمنا فيها أنا وأخي ، مدحنا ببيت من الشعر ، ميّزني فيه عن أخي ، قال :

كلا الأخوين « .. اط » ولكن
شهاب الدين « أض.. » من أخيه .

إن اقبلَت ... أو أمحلَت

❖

يُروى ان الشيخ ابو الحسن الميماسي كان عائداً من الحجّ ، فوقع وجرح يده جرحاً بليغاً ، فأشار عليه أصحابه ان يستعمل بول الحمار ، لتطهير الجرح ، فأبى . مع العلم ان بول الحمار كان يُستعمل لهذه الغاية .

فذكّره أصحابه بالرواية التي تقول ان الأسد أصابه جرب. فشكا أمره الى أبينا آدم ، فقال له : « عليك ببول الحمار » .

فقال الأسد : « ولماذا بول الحمار دون سواه ؟ »

قال : « لكي لا يتجبّر القوي على الضعيف » .

فنزل الشيخ أبو الحسن ، عندئذٍ ، عند رغبة أصحابه . في ذلك الوقت ، كان عندنا قولٌ مأثور ، يصح ان يكون صدر بيت من الشعر ، هو :

— « إن أقبلت باض الحمام على الوتد »

فأجازه الشيخ ابو الحسن ، فصار :

إن أقبلت باض الحمام على الوتدْ
أو أمحلت « شَخّ » الحمارُ على الأسدْ

فجرى هذا البيت من الشعر مجرى الأمثال .

"قمط" زهير وانتهت بخير

❖

و « زُهَير » هو اسم يُطلقه الفلاّحون ، غالباً ، على كل ثور مزهّر اي ملوّن بأكثر من لون واحد ، وهو من أفضل أنواع البقر .

في أوّل فصل الربيع ، من كل سنة ، ينتاب البقر أحياناً ، ما يسمى مرض « النفخة » ، فينتفخ الثور ويرقد على الأرض ، ويتمرمغ على بطنه : ليُخرج الغازات من جوفه ، فاذا عجز عن إخراجها مات من الانتفاخ ، لكنه في غالب الأحيـــان يستطيع ان يدفع الغازات الى الخارج وينهض في الحال .

فيقول مَن كان حوله من القرويين :

— « قَمَط » زهير ، وانتهت بخير !

الا أنهم ، كذلك ، يستعيرون هذا المثل ، لبعض المناسبات ، فإذا تورّط أحدهم في ورطة ، ثم خلّص نفسه منها ، يقولون :

— « قَمَط » زهير ، وانتهت بخير !.

* * *

كان بنك « كرياكوس وزهير » من أشهر مصارف لبنان ، في مطلع الثلاثينات ؛ من القرن الحالي .

وكان مديره الخواجه نقولا زهير — من راشيا الـوادي أصلاً — من أشهر رجال المال في ذلك الزمان ، وكانت له صلات وصداقات مع أكثر وجهاء البقاع الغربي وحاصبيا ومرجعيون .

في ذلك الوقت حدثت الأزمة العالمية المشهورة التي اجتاحت عدة بلدان أوروبية وأميركية ، فانكسر بنك كرياكوس وزهير — ربما بسبب الضائقة المالية — وكان انكساره أهمّ حدث في لبنان ، على مدى عدة سنوات .

ويُحكى ان رجلاً من إحدى قرى البقاع الغربي ، رجع من المهجر بثروة محترمة استودعها بنك كرياكوس وزهير .

واستقرّ الرجل في مسقط رأسه ، وبنى داراً فخمة في قريته . وصار وجيهاً محترماً ، وفتح أبوابه للقادمين والعابرين ، وعمل لنفسه كرامةً بكَرَم أخلاقه ، ولم يحسب لدولاب الزمان اي حساب .

وفي ساعةٍ سمّاعةٍ انكسر البنك وطارت ثروة الرجل ، فأغلق أبوابه ، وهاجرّ الى الأبد ، تاركاً فوق أحد الأبواب لوحة كتب عليها ، بالقلم العريض :

— « قمط زهير ، ولمْ بقينا بخير ، نرجو المعذرة » .

• • •

وعاشت هذه العبارة ، على ألسنة الناس ، سنوات عديدة ، ثم اختفت ، الى ان انكسر بنك « إنترا » لسنوات قليلة خلت .

وحدث يومئذٍ ان التقيت رجلاً ، من رجال الأعمال ، يحاول ان يصفّي حساباته ، ليهاجر نهائياً ، قال : « صح بي قول المثل : « قمط زهير ، ولم بقينا بخير ، نرجو المعذرة » .

هكذا صارت هذه العبارة من الأمثال العامّة .

*

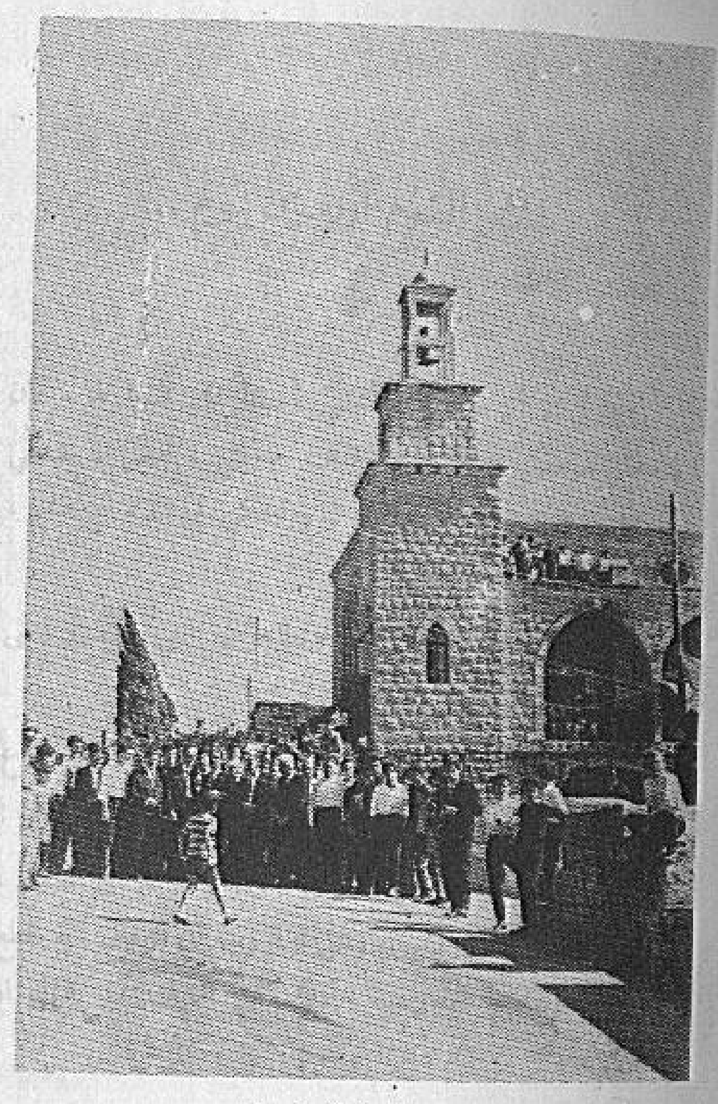
منذ ثلاث سنوات تقاعدتُ وقررتُ ان أعود الى قريتي ، محطّ رحالي ، في جولتي مع الحياة ، لأصرف ما تبقّى من حياتي في لملمة ذكرياتي ، وأتفرّغ ما أمكن لمعاشرة الناس .

فرممت بيتي في إبل السقي ، ونقلت كتبي وأوراقي اليه ، وتفقّدت قبر والدي ، وقلت : « الى هنا أرجو ان يعينني الرب ! »

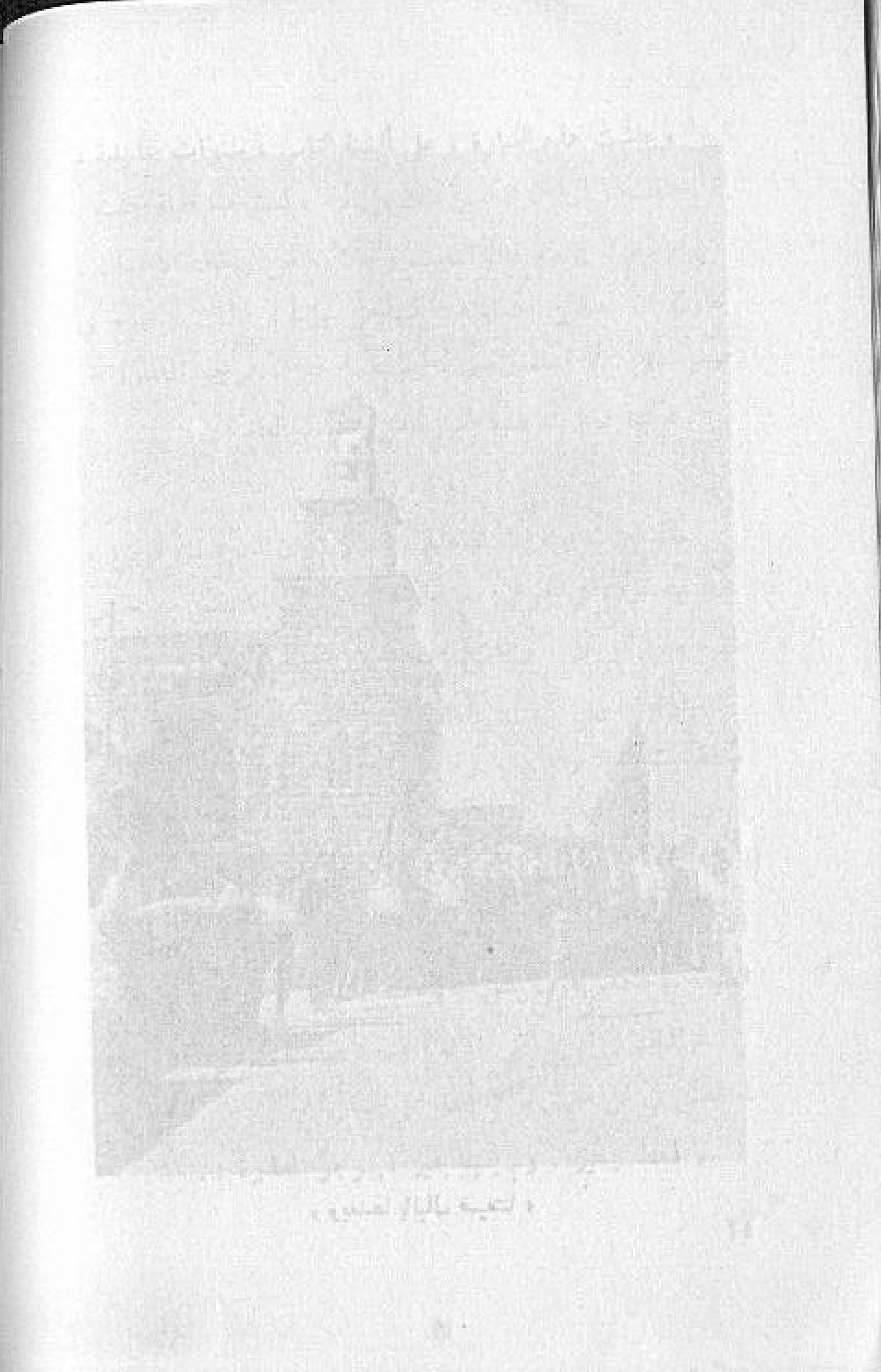
لكن جرى ما جرى ، وما يزال يجري في الجنوب ، وطال انتظاري وقلّ اصطباري ، والرجل اذا افتقر يعود الى دفاتره العتيقة – هكذا يقول المثل – .

ولذلك ، اذا سألني الآن أحد الأصدقاء ، عن برنامجي ، لما تبقّى لي من حياتي ، لا أجد على لساني غير :

« قمط زهير ، ولم بقينا بخير ، نرجو المعذرة » .



« وبعدها بالبال ضيعتنا »



عَاشِرِ القَوْم أربعِينْ يَوم ...

❖

جارتي « أم سرور » تأتمنني أحياناً على أسرارها ، لأن « الجار موصّى بالجار » ، ولذلك جاءتني ، أمس ، تشتكي لي على خطيب ابنتها ، قالت : « الحكي بيناتنا ، يا غشيم ، يا « عديم » » .

ففهمت معنى « غشيم » ، وتظاهرت انني فهمت معنى « عديم » .

وتذكّرت انني وقفت يوماً أمام باب دكان ، في شارع المطران ، في صيدا ، أسأل رجلاً عن مدرسة المقاصد ، فقال :

— « تجتاز الشارع الى الطريق ، ومن الطريق الى المعبور ، ومن المعبور الى الزاروب ، ومن الزاروب الى الزقاق . ثم تقطع المصليّة وتستلم القادوميّة ، فلا يبقى أمامك غير قناق او قناقين » .

وعندما رآني الرجل أقف ذاهلاً لم أفهم شيئاً ، قال :

– « هيئتك « إبن مدارس أكثر من اللزوم » ، لو كل أعمى قلب سأل سؤال ، بدنا نرسملو خارطه ، كنّا سكّرنا الدكان من زمان » .

من ذلك الوقت تعلّمت ان لا أكون « إبن مدارس أكثر من اللزوم » ، ولذلك تظاهرت أمام « أم سرور » بأنني فهمت ماذا تعني ، وقلت لها : « أنتِ سيت العارفين ، دبّري الأمر بحكمتك ! »

قالت : « ولكن المصيبة انه لا يفهم بالإشارة . فالمثل يقول : « عاشر القوم اربعين يوم ، ان ما صرت منهم ، إرحل عنهم ! » »

فقلت : « ولماذا « أربعين يوم » ، لا أكثر ولا أقل ؟ »

قالت : « وهل أنت ، أيضاً ، غشيم ، لا تعرف ان الخطبة تكون أربعين يوماً : أول عشرة أيام . ضيف . ثاني عشره ، بسط وكيف . ثالث عشره ، « كَم وكيف » ، رابع عشره ، « سِل السيف ... وفهمك كفايه ! » .

فقلت لها : صدقتِ يا « ام سرور » ، ولعل خطيب إبنتك هو مثلي « إبن مدارس أكثر من اللزوم » .

الحمار خِلِص

❖

على ألسنة العامّة في لبنان إصطلاح كلام يستعملونه عند الوصول الى نهاية لم تكن منتظرة ، فيقال : « الحمار خِلِص » أي أنه انتهى .

وقد تبرّع لنا الصديق جوزف بيّوض بقصة هذا القول الشائع ، قال :

يُحكى ان رجلاً مدنياً التقى رجلاً قروياً يجرّ حماراً فأراد ان يختبر ركوب الحمار ، كتذكار ، لمناسبة زيارته الى تلك الديار وعرض على القروي استئجار الحمار ، ليركب عليه مشواراً ، لقاء إجرة معينة .

فوافق القروي وساعد المدني على اعتلاء ظهر الحمار وأشار عليه ان يركّز نظره بين أذني الحمار ، حفظاً لتوازنه وخوفاً عليه من السقوط .

وبما ان المدني كان من أساتذة الرياضيات وله خبرة في معرفة المسافات وتقدير القياسات ، لذلك ، وبحكم مهنته ، استطاعَ ان يقدّر المسافة بين عينيه وأذني الحمار بمتر واحد تقريباً .

وحدث ان انقطعت « الحياصة » التي تشدّ البردعة الى ظهر الحمار ، وكانت الطريق تتجه نزولاً ، فبدأت البردعة تنحدر صوب رقبة الحمار ، فتتقلّص المسافة ، تدريجياً ، بين عينَي الرجل المدني وأذني الحمار .

وراح الرجل يُعيد تقدير المسافة ، قال انها صارت تسعين سنتيمتراً ، ثم ثمانين ، ثم ستين ، ثم أربعين ، وهلمّ جراً حتى أوشكت البردعة ان تصل الى أذني الحمار .

وكان القروي يمشي قدّام الحمار ، فلم يلتفت ولم يلاحظ ما كان يحدث وراءه .

وعندما بلغت البردعة أذني الحمار تضايق ونكّس رأسه « فقشط » الرجل أمام الحمار : فالتفت القروي وسأله :

— « ليش نزلت ؟ بعدو المشوار ما خِلِص . »

قال الرجل : « لكن الحمار خِلِص ! »

فجرت عبارته مجرى الأمثال .

تعَلّم البَيطره بحَمير النوَر

❖

في بعض الأحيان ، أصير انا نفسي ، شاهداً من شهود حكاياتي وشهيداً على مسرح دعاباتي ، ويصير جوري على نفسي مثل جوري على بعض الناس ، « ومَن ساواك بنفسه ما ظلمك »

. . .

مع تقادم الأيام ، صار لي تلاميذ وأنصار ، يسمعون أقوالي ويحفظون حكَمي وأمثالي ، فاطمأنّ قلبي .

وكان من بين هؤلاء شاب أديب نجيب جعلته « تلميذي الحبيب » وصرت أشركه في جميع أموري حتّى لا تفوته شاردة او واردة من مرويّاتي ، فاذا دنا أجلي ، أكمل تلميذي هذا عملي فلا تضيع أتعابي سدىً .

وحدث ان أوصيت على بدلة جديدة ، عند خيّاط لم يتقن خياطتها ، فحملتها اليه طالباً إصلاحها ، ورحت أتجادل معه في شأنها .

وكان « تلميذي الحبيب » معي ، فانتصر لي ووقف في وجه الخياط وصاح به :

– « أنت خياط ؟... أنت معلّم ؟... ام انك – كما قال المثل – تريد ان تتعلم البيطرة بحمير النَّوَر ! »

ففطنت عندئذٍ الى واقعة حال يرويها الدكتور شاكر الخوري ، في كتاب « مجمع المسرات » ، عزّيت نفسي بها .

يقول الدكتور شاكر الخوري ، ان أحد أصدقائه الشهابيين كان عنده ابن أصابه عارض صحّي ، فانعقد لسانه وكفّ نهائياً عن الكلام ، فحضر الدكتور شاكر وأعطى الولد دواءً استسلم بعده الى نوم عميق ، ثم ما لبث ان نهض فجأة ونادى أباه .

ففرح أبوه والذين كانوا عنده ، لأن عقدة لسان الولد انفكّت ورجع يتكلم ، فقال الولد :

– « يا أبي ، رأيتك في المنام كديشاً وانا أركب عليك فلما وصلنا الى النهر سقطت في ... »

فانتهره أبوه وطرده من حضرته ، فقال الذين كانوا عنده : « دعه حتى يخلّصك من الماء ! »

تشتري أحسن حمار، ولا تصير ابن كار!



في أيام حداثتي كان أبناء الجنوب ، إذا تحدّثوا عن رجل وضيع ، صار رفيع القدر ، قالوا : « صار الزبّال « طبّال » ، والحمار مهندس » .

ولم أكن ، ذلك الوقت ، أعرف كيف صار الزبال طبالاً ، إلا أنني كنت أعرف كيف صار الحمار مهندساً ، وعند أهل مرجعيون الخبر اليقين .

في العهد العثماني ، كانت طريق العربات : من صيدا الى مرجعيون ، تصل حتى جسر « الخردلي » على نهر الليطاني ، فقط .

ثم قررت الدولة العلية شق الطريق من جسر الخردلي الى مرجعيون ، عبر أماكن وعرة وشديدة الانحدار ، فوقع الاختيار على حمار ، واسع الحيلة ، كثير الاختبار ، جاؤوا بـه من مرجعيون وأطلقوه عند جسر الخردلي ، وتبعوه ، ووضعوا

علامات تلو علامات ، حتى مرجعيون(١) .

ثم بُوشر بشقّ الطريق وتعبيدها ، وفقاً لهندسة الحمار وتصميمه ؛ وما زالت طريق مرجعيون ، حتى الآن هي الطريق التي وضع الحمار تصاميمها ، نقطعها صعوداً وهبوطاً مترحّمين — لا مسترحمين — وقد آلينا على أنفسنا الحفاظ عليها تخليداً لذكر الحمار ؛ ليبقى اسمه بين المصلحين .

هذه هي حكاية هندسة طريق مرجعيون ، كما كان يرويها شيوخ قريتي ، لكن يبدو ان لهذه الحكاية ذَنَباً جميلاً ما زال يقبض عليه ويحتفظ به شيخ ثقة من رجال ذلك الزمان ، ولا مناص من اعادة تركيب ذنب الحكاية في مكانه ، لئلا يضيع .

يقول « ابو سعد الديرعطاني » ان الفرنسيين ، في عهد الانتداب ، قرروا تقويم الطريق ، هذه ؛ فأوفدوا أحد كبار المهندسين ، الذي باشر عمله قرب جسر الخردلي ، بأخذ الثقلات والمقاسات ، بواسطة بعض الأجهزة والآلات ، وبمساعدة عدد من العمال والمساعدين .

---

(١) يقول الاستاذ الفرد ابو سمرا ، صاحب « القلم الصريح » المرجعيونية ، ان « بشاره الدب » مهندس ولاية بيروت ، في القرن الماضي هو الذي استعان بالحمار ، لشق الطريق ، للعربات التي كانت تجرها الدواب ، ولذلك كان لا بد من الاستعانة بحمار من أهل الاختبار .

لكن ما لبث بعض الفلاحين ، من سكان القرى المجاورة ، ان لاحظوا وجود حركة غريبة مريبة قرب الجسر ، وجاؤوا مستطلعين مستفسرين .

فقال المهندس : « جئنا نضع دراسة فنيّة حديثة لشقّ طريق جديدة الى مرجعيون ، حسب أصول الهندسة . »

قالوا : « ولكننا في هذه البلاد نستخدم حماراً خبيراً قديراً هذه المهمة » .

فابتسم المهندس وقال : « واذا تعذّر وجود حمار خبير قدير ! »

قالوا : « عندئذٍ ، لا بد من تكليف مهندس خبير قدير بهذه المهمة » .

فلملم المهندس ، حينئذٍ أوراقه وأوتاده ، ورجــع من حيث اتى وقدّم تقريراً بواقع الحال .

ويُضيف الأخ ابو سعد ان طريق مرجعيون ، بقيت ، لهذا السبب ، كما هندسها ذلك الحمار الخبير القدير .

• • •

قلت اني عرفت ، منذ حداثتي كيف صار الحمار مهندساً ، اما كيف صار الزبال طبالاً ، فخبره عند الأخ « أبو الجود » ، قــال :

في ذلك الزمان ، كان متعهدو تنظيف الشوارع في مدينة بيروت يجمعون الزبالة وينقلونها على الدواب ، الى أمكنة معينة على الشاطىء .

وكان على الزبال ، ذلك الزمان ، أن يقتني حماراً ، كانت اجرته في النهار عشرة قروش ، وإجرة صاحبه خمسة ، أي نصف إجرة الحمار . وكنت اذا سألت زبالاً عن أحواله ، أجاب : « ما زال الحمار بخير ، أنا وعائلتي بخير » .

ويُحكى أن زبالاً مات حمـاره ، فولول وصاح : « واحماراه ! » ، وجلس قرب الحمار يعدد خصاله ويذكر أفضاله .

وجاء جماعة من المعزّين وقفوا حول صاحب الحمـار صامتين ، ثم تقدم رجل وقال : « يجب أن تشكر الله ، لأن « الفقيد » حمار لا حصان ، لأن الحصان اذا مات خسرت ثمنه ، لأن جلده لا يصلح لشيء ، اما الحمار فإنك تسلخه وتشدّ جلده طبلاً فتبيعه بثلاثة أرباع ثمن الحمار » .

فانتبه الرجل وقام وشمّر عن ساعديه وسلخ الحمار وشدّ جلده طبلاً علّقه في رقبته ، ومشى يقرع عليه في أزقة المدينة ، لعله يجد مَن يشتريه .

فالتمّ صبيان الحي ، على صوت الطبل ، وخطر للرجل

أن يجمع منهم ما تيسّر معهم ، فوجد في المساء أنه جمع من قرع الطبل أكثر مما كان يقبضه من نقل الزبل .

وحدث عرس في المدينة ، فحمل طبله وجاء ، وصال وجال ، فنقدوه عشرين قرشاً . ثم رجع رجل من الحج ، فمشى بطبله أمام المستقبلين ، وقبض خمسين قرشاً حلالاً زلالاً .

أخيراً قرر الرجل أن يعتزل كار الزبالة ، ليتفرّغ « للفن » : وعرف قيمة نفسه ، وأسف لما فات من عمره في عشرة الحمير ومَن هم أحمر من الحمير ، فطلق زوجته ، لينسى تعاسته ، وتزوج امرأة تليق بمقـامه ، وعمل لنفسه أبّهة ، وصار من أصحاب الجاه في المدينة .

وفي أحد الأيام ، أراد زبال آخر ان يحتفل بزواج ابنه ، فدعا ـ زميله السابق ـ الطبال ، وقال : « أنت صديقنا ومجبور فينا » ، فحضر الرجل بطبله وقام بالواجب ، فشكره الزبال وعرض عليه إكرامية ، فقال : « إجرتي مقطوعة ، خمس ليرات ! » .

فوجم الزبال ، وقال : « ألا تخاف الله ؟ أنسيت أني أعيش من تعب حماري ؟ ألا تذكر أنك كنت زميلي وصديقي في يوم من الأيام ؟ ألا تعلم أنني أستطيع بخمس ليرات أن أشتري أحسن حمار في المدينة ؟ »

أجاب الطبال : « تشتري أحسن حمار ، لكنك لا تصير « ابن كار » !

يقول الراوي – على ذمته – ان كثيرين من الزبالين ، بعد هذه الحادثة ، باعوا حميرهم وشدوا طبولاً وصاروا فنانين « أبناء كار » .

وقد نشأت أزمة الزبالة ، في شوارع بيروت ، مذ صار عدد الزبالين أقل من عدد الفنانين في المدينة .

* * *

كان القديس « رومانوس » شاعراً ، ومما يُذكر أنه نظم أكثر من ألف أنشودة تستعملها الكنيسة اليونانية في صلواتها .

وتذكر كتب القديسين أن القديس رومانوس ، قبل أن يصير شاعراً ، كان في إحدى الليالي نائماً ، فظهرت له السيدة البتول وقدمت اليه كتاباً فتحه ، فإذا هو ديوان شعر . ثم أمرته السيدة أن يبتلع الديوان فابتلعه ، وعندما استيقظ وجد أنه صار شاعراً .

وما زال البعض يعتبرون القديس رومانوس شفيع الشعراء الى يومنا .

* * *

أعرف شاعراً كان يأكل دواوين الشعر ، منذ وقت طويل ، وقد بلغ عدد الدواوين التي أزدردها ، حتى الآن أكثر من مئة . وفي ذات صباح استيقظ فوجد أنه صار شاعراً .

أمس أرسل إليّ مع رسول ، باكورة إنتاجه ، وهو كتاب شعر موضوعه : « مساقط الإلهام ، بين الغمام » . وبعد ساعتين اتصل بي وسألني كيف وجدت الديوان ، قلت : « جيد جداً ».

قال : « وهل قرأته ؟ »

قلت : « الكتاب يُقرأ من عنوانه » .

* * *

عندي جار « إبن كار » ورث كار السكافة عن أبيه ، عن جده الذي كان أول مَن شدّ مداساً بشريطة في راس بيروت .

كنت أمر يومياً أمام باب دكان هذا الجار ، إبن الكار ، فأراه جالساً على سدّته ، وراء السندان ، كأنه سلطان ، فردة الحذاء في يُسراه ، والشاكوش في يُمناه ، وكمشة مسامير في فمه ، يتناولها واحداً واحداً ، وبين كل مسمار ومسمار جملة أحاديث وأخبار ، قلت لا بد أن تكون عند هذا الجار العرمرم حكمة أتعلمها منه ، فلا يضيع يومي سدىً .

ودخلت وجلست على صفيحة تنك فارغة ، راحت تقرقع تحتي : كلما « تخلفصتُ » فوقها . ومع ذلك شكرت الله ؛ لأني وجدت ما ألقي طرفي عليه .

وتذكرت أن أمين الريحاني قال عن اسكندر الرياشي ، إنه كان يقرأ مئة سطر ليكتب سطراً واحداً ، فقلت ، ليت أمين الريحاني يعرف أنني أجالس ، في النهار الواحد ، عتالاً وزبالاً

وطبالاً وبائع بطيخ وخمسة سائقي تاكسي وإسكافياً عرمرماً وثمانية متبطّلين وعشر عجائز طرْش ودركياً متقاعداً ورجل دين وثلاثة من المجاهدين ، إضافة الى بعض الدعاة الثقاة من أصحاب النظريات ، وانني أتعشى ثلاثة دواوين من الشعر ، ثم أتحلى بأغنية « ويلي ويلي » من راديو بيت الجيران . أفعل كل ذلك ، لعلي بالتالي ، أستفيد حكمةً أو مثلاً أو حكايةً أكتبها لئلا تضيع

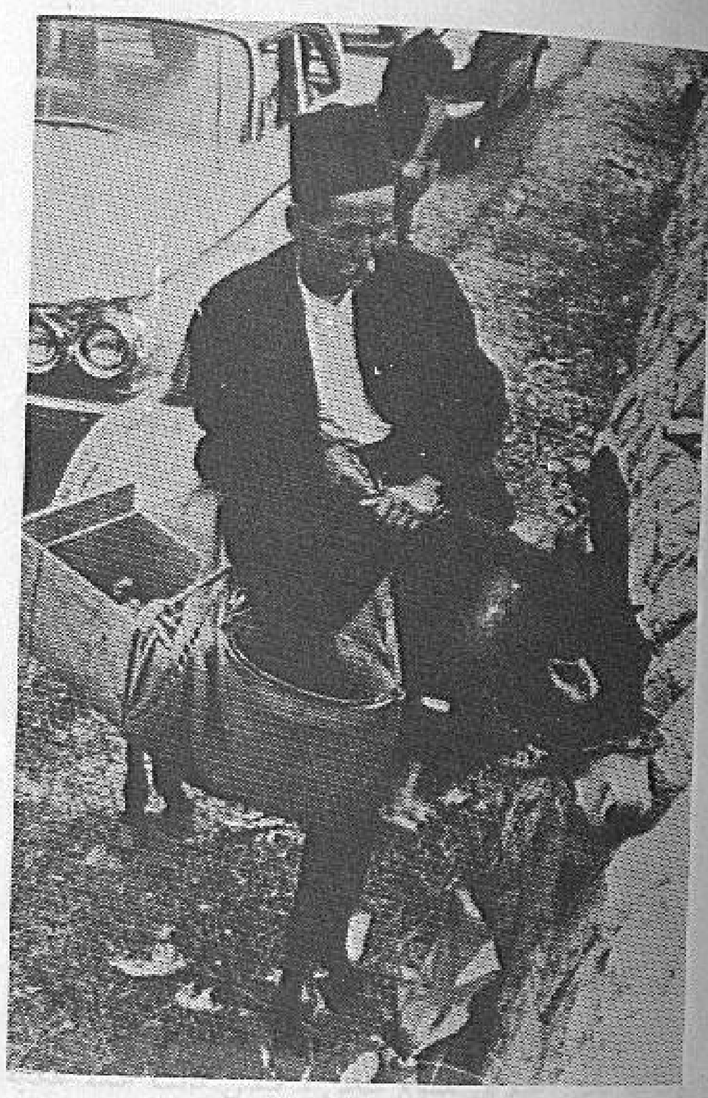
أعود الى صديقنا الإسكافي الذي كان يمد حديثاً متسلسلاً ، منذ الصباح ، على رجلَين « مقنبزين » في الزاوية . وما زال يتابع حديثه بين كل مسمار ومسمار ، دون ان ينبس الرجلان ببنت شفـــة قلت ، لعلهما « يتلطّيان » في الزاوية حتى لا تراهما زوجتاهما اذا عبرت إحداهما في الزاروب .

ثم انتبه أخونا الإسكافي الى دخولي ، وقال : « أمر ، يا خواجه » .

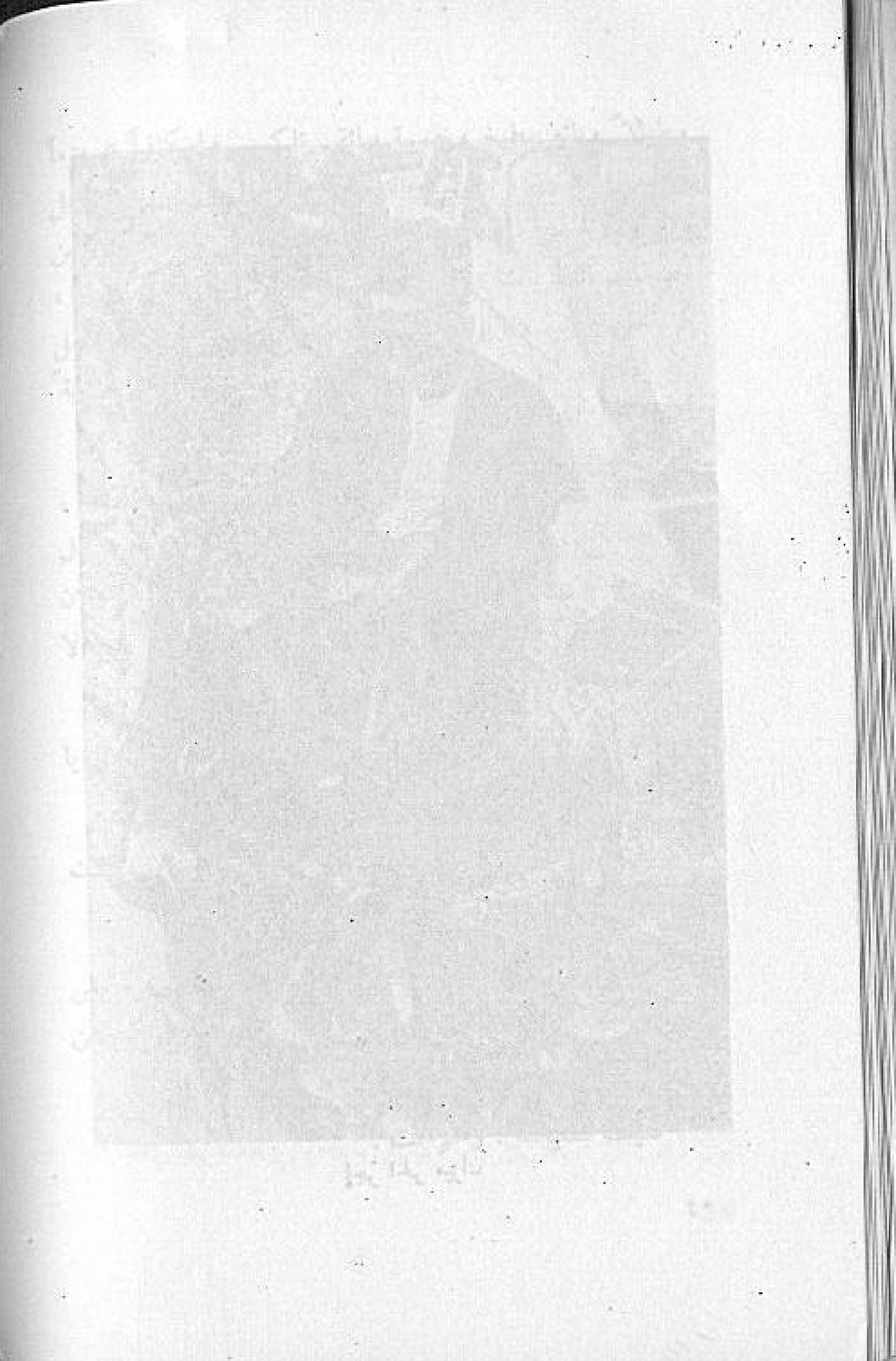
قلت . « عفواً ، أنا أريد أن أتعلّم شيئاً جديداً ، وجئت اليك الآن ... » .

فعاجلني : « يا أخ ! هــذا كار السكافه : موهبه مش إكتساب ؛ فــاذا تعلمت السكافة ، على كِبَر ، ولم تكن من أصحاب المواهب ، فلا يمكن أن تصير « إبن كار » .

فقبلت نصيحته ، وخرجت .



إجر الحر ميزان



سُبحَانَ مُقسّم العُقول

❖

بدأت أخيراً أفهم لماذا « استوطى حيطي » بعض الناس وعملوني « مكسر عصا » .

يقولون ان عذوبة أحاديثي تجذبهم الى مجالستي ، لكنهم متى حضروا ، تناولوا عني الحديث ، بدون انقطاع ، وراحوا يتجادلون ويتهادنون ، يبيعون ويشترون ، يفصّلون ويلبسون ، يحزمون ويقطعون ويتمقطعون ولا مَن يسمعون ولا مَن يحزنون فلا يتركون لي مجالاً لمجاملة او مداخلة حتى منتصف الليل .

وازدادت مداهمات الناس لي ، في الصباح الباكر ، حين تكون طاقتي على الإصغاء اكثر من توقي الى الكلام : فيُفرغ الواحد منهم جراب حديثه ، حتى آخر كلمة ، وينصرف راضياً عن عمل يومه .

ومما زاد في الطين بلّة ، ان بعض إخوان السوء ، روّجوا إشاعة بأنني أشتري هموم الناس ، فمَن كانت عنده حكاية

كاسدة : فلْيأتِ بها اليّ مع سائر المُتعبين والثقيلي الأحمال وانا أريحهم .

ومع الأيام تجمّعت عندي نماذج خارقة من الأصدقاء الذين جاؤوا يبيعونني همومهم : فاشتريت .

* * *

« أبو الحِلّ » عميل دائم عندي ، يزورني كلما وجد نفسه عاطلاً عن العمل ، فيدخل ويقبض على أوّل كرسي قرب الباب ويجلس عليه « متقلقزاً » مثل كل « إبن ضيعة » في المدينة ، ويتكلم متمهلاً كأن كلامه مطبوخ على وهج « المرمّعون » في مواقد الشتاء .

ويشرع حالاً بالحديث عن « مار الياس الحي » ، بكل وقار ، فيُعيد نفس الكلام في كل مقام ، ويكرر نفس العبارات في الحكايات ، كأنها آيات من بعض الصلوات .

وفي إحدى الليالي جاءني بقصة جديدة عن مار الياس ، قال : « نزلت دجاجة من دجاجات بيت الحاموش على جنينة دير مار الياس ونقدت طربون نعنع : وقعت بالحال ميتة بسهلتها » .

ويأخذ ابو الحِلّ مصّة عميقة من سيكارته الغليظة ، ويُضيف : « بدّك الدغري ! ... هذي « ضيقة عين » ؛

ما بيجوز مار الياس – السلام على اسمو – يحطّ عقلو بعقلات الدجاجه » .

*

كان الأخ شاكر ، كلما التقاني ، هددني بزيارة ، حتى نفّذ أخيراً تهديداته بي ، فجاء يسهر عندي مع زوجته ووالدتها ، مصطحباً معه طفلاته الثلاث : لينا ودينا وماندرينا .

فالأخ شاكر يتهمني بالذكاء ، وهو يحبّني لأن الأذكياء يجب أن يُحبوا بعضهم بعضاً .

وزوجته تتهمني بمحبة الأطفال ، وهي تحترمني لهذه الخصال .

أما والدتها فتحبّني بالرب يسوع ، لأني تقي نقي أخاف الله .

هذا كان مدار الكلام على ألسنة الضيوف الكرام .

وأما انا فلم يكن في إمكاني أن أتكلم فأحاول ان أردّ عن نفسي هذه التهم ، لأن أفكاري وأنظـاري كانت على العزيزة « لينا » التي قبضت على مزهرية من البلّور ، وهربت بها أمام أختها حبيبة القلب « دينا » ، التي أمسكت منفضة من المعدن الثقيل وراحت تهتّ بها على أختها ، المعتصمة في حضن جدّتهـــا .

اما « قُرّة العين » « ماندرينا » ، فقد تسلّلت الى المطبخ ، وعثرت على معجن دبس البندوره ، فبلغصت فيه بيديهـا وشفتيها ومناخيرها ، وعادت وانقضّت عليّ ، فجلغمتني وأصابتني في أحد عشر مقتلاً من مقاتل ثيابي .

ثم ارتدّت صوب شرشف الطاولة ، فملغطته ، وانعطفت بعد ذلك ، نحو إحدى الوسائد فمرمغتها ، وشقلبت إحـدى الكراسي وشحشطتها ، وعندما رأت والدتها تضحك لها ، معجبة بهضمنتها ، انكفأت وجلست في حضنها .

* * *

في أغلب الأحيـان ، عندما تحزّ المحزوزية ، يكون في مقدوري ان أتملمص من المواغيص ؛ وان أزمط بريشي من شتى البلاغيص .

بيد اني في تلك الليلة ، أردت ان أحمل صليبي حتى النهاية. لأتعلم على حسابي ؛ فأدفع ثمن المجاملات التي أتبادلها يومياً ، مع مختلف الأصحاب ، بدون حساب .

أخيراً نشب جدال بين الأخ شاكر وزوجته التي تريد ان تعلّم بناتها الثلاث ، الطب والمحاماة والهندسة . اما شاكر فيقول ان العلم لا يزيد ولا ينقّص ، فهو — اي الأخ شاكر — غير متعلم ، ويحطّ أكبر دكتور فلسفة في جيبه ، ثم وجّه

سؤاله الأخير اليّ : « دخلك أيمتى كان العلم يصيّر الإنسان زلمي ؟ ».

فنابت عني زوجتي ، وقالت : « صحيح ! ... العلم ما بيصيّر الإنسان زلمي ، بس بيصيّر الزلمي إنسان ».

* * *

في ذات مساء قلت أرجو ان يردّ الله عني شرّ البطالين والمتلوطعين ، في هذه الليلة ، لأني كنت أهتمّ « بقولبة » جديدة لحكاية قديمة ، وأحتاج الى مزيد من هداوة البال .

واذا برجل من أبناء قريتي يدخل زائراً ، فاستقبلته بلطف وجلست قبالته ، وقلت في نفسي : هذا الرجل لا بدّ ان تكون له حاجة جاء من أجلها ، ولا يلبث ان ينصرف ، فرحّبت به ثلاثاً ، وانتظرت أن يتكلّم ، لكنه لاذ بالصمت .

ثم مدّ يده وأشعل لفافة . ثم أتبعها بأخرى ... وشعرت بثقل وطأة الصمت ، فرحت « أتحرحش » به ، علّه يقول شيئاً .

– كيف انت ولعب الباصرة ؟

– شو قولك بالدكاديك والطلامي بكشلك ؟

– بعدها عصافير الدوري « متحططه » على بيدر ابو جابر ؟

– كم حماراً ما زال يوجد في ضيعتنا ؟

وكان الرجل ، كلما سألت سؤالاً تقوعص ، ثم دوقر ، ثم تنشق ، ثم عفط ، ثم مسح أنفه بكُم قميصه وأجاب : إمّا بانحناءة من رأسه او برمشة من جفنه او بكلمة مبهمة او بعبارة مفشكلة لا تعني شيئاً .

واحترت في أمر هذا الرجل ، أليس في إمكانه ان يلفق قصة ، أن يخرط كذبة ، ان يتحدث عن ذكاء أولاده مثلاً ، ان يروي خبرية عن أبيه أو جده ، او على الأقل ان يتكلم عن مهارته في خصي الديوك ، او حدل السطوح ، او حمل المبخرة امام الخوري ، او ما أشبه ذلك من أخبار الحمير وغير الحمير في ضيعتنا .

وقلت ، هذا أول غشيم أراه في حياتي غير معجب بأولاده ، وغير متيّم في غرام نفسه ، ورحت أتململ ، لعله يتحلحل ... فيتجمّع ويتشقشل ، كأنه يحاول ان ينهض ، ثم يعود فيتفلفش من جديد ، ويتناول لفافة يُشعلها ويدخل في « قناق » جديد من الصمت المضني الممض .

ثم تذكرت انني عندما كنت في البرازيـل ، في الشتاء الماضي ، تلطّفت إحدى المؤسسات الثقافية البرازيلة ومنحتني وساماً على اسم القديس « اليعازر » . فسألت : « ولمـاذا اختاروا لي الاقتداء بالقديس اليعازر دون سواه من القديسين ؟

قيل ان القديس اليعازر هو الانسان الوحيد في الدنيا ، الذي مات مرّتين : مات أوّل مرّة ، فأقامه السيد المسيح من القبر ، بعد موته بأربعة أيام ، لكي يتمجّد اسم الربّ ، ثم لا بدّ انه مات ثانيةً كما يموت جميع الناس : فيكون ، اذن ، القديس اليعازر هو الانسان الوحيد الذي ذاق طعم الموت مرّتين ، لكي يتمجّد بواسطته اسم المسيح المخلّص .

فقلت ، سامحهم الله ، فليدّعوا القديس اليعازر وشأنه ، فأنا لا أريد ان أموت ، حتى ولا مرّةً واحدةً اذا استطعت . وعندما أواجه كأس الموت سأنسى جميع الآيات : ما عدا قول السيد المسيح عندما واجه الموت : « فلتعبر عني هذه الكأس ، ولكن فلتكن مشيئة الله ! » .

هكذا ذهبت بخيالي الى البرازيل ورجعت مع القديس اليعازر ، وما زال ضيفي ابن قريتي ثاوياً يُشغل نظره في فراغ الحائط ، حيث لا يرى الرائي شيئاً : فتوجّهت الى شفيعي القديس اليعازر بضراعة صادقة ان يُبعد عني كأس الغضب .

وبموجب خبرتي للناس ، كنت أعرف ان كل انسان لا بدّ ان تكون له فلسفته الخاصة في الحياة : مهما كان غشيماً ، وان الكسلان يصير فيلسوفاً في أغلب الأحيان .

ثم فطنت الى ان أهـل قريتي كانوا يقولون ، في بعض المناسبات : « سبحان مقسّم الحظوظ ! » فيعترض عمي ابو ضاهر ويقول : « سبحان مقسّم العقول ... لا الحظوظ » . لأن كثيرين من الناس غير راضين بحظوظهم : ولكن لا يوجد في الدنيا إنسان قطْ ، الا كان راضياً عن عقله تمام الرضى .

وقلت ، إن هذا الرجل ، لا يرضى : إذن ، ان يبدل عقله بعقل أكبر فيلسوف في الدنيا ، مهما دفعنا له « فرق سعر » .

وشعرت عندئذٍ بطراوة تبلّل وجهي ، لعلها نتيجـة جنوحي أخيراً الى التفلسف ، فشكرت القديس اليعازر ، لأنه استجاب لضراعتي وألهمني هذه الأفكار الفلسفية الجميلة .

وقبل أن أفرغ من تقديم امتناني الى القديس اليعازر ، نهض الرجل مودّعاً ، وقال : « بلا قطع لحديثك ، راح عزّ الحمير . ما بقي بضيعتنا غير طنعشر حمار » .

فتوجّهت مجدداً ، بالتماس حارّ الى القديس اليعازر ان « يقطع دابرة » الحمير من قريتي ، إلى الأبد .

القِسمُ الثاني

دفاتِرُ عَتيقة

لقد علمت بأن أهل القرية كانوا يحرقون [illegible] في [illegible]
المستشفيات : « سبحان مقسم الحظوظ » ، [illegible]
[illegible] ويقولون : « سبحان مقسم العقول » [illegible] لا [illegible]
لأن كثيرين من الناس غير راضين بحظوظهم ، ولكن [illegible]
في الدنيا إنسان [illegible] ، [illegible] راضياً عن عقله [illegible]

وقلت : إن هذا الرجل ، لا [illegible]
عقله يحتل أكبر [illegible]

وشعرت [illegible] بمرارة [illegible] ، [illegible]
[illegible] أخيراً إلى [illegible] ، فتذكرت [illegible]
[illegible]

وقبل أن أفرغ من تقديم [illegible] إلى [illegible]
الرجل [illegible] ، وقال : « [illegible] » ، [illegible]
[illegible] بصحتك [illegible] ! »

فتوجهت [illegible] ، [illegible] إلى [illegible]
[illegible] دائرة [illegible] الأبد .

سُبحَان مُقسّم الأعمار والأقدار

لماذا يكون الإنسان ، مثل الأسد ، في أيام شبابه ، وعندما يبلغ الخمسين من عمره يصير مثل الحمار ، يرزح تحت الأثقال ويرضخ لسوء الحال . فاذا بلغ من العمر عتياً صار مثل الخلد يعيش في الظلام ويتلمّس نهاية طريق حياته .

* * *

تقول إحدى الأساطير ، ان الله تعــالى ، عندما خلق المخلوقات ، أراد ان يحدّد أعمارها ، لأن كل حيّ لا بدّ ان يموت .

فاستدعى الله ، الإنسان أولاً ، وقال له :

– « قسمنا لك ، يا « ابا قايين » عمراً في حدود العشرين سنة » .

فتراجف الإنسان ، وتراجع قليلاً وقال :

– « طال عمرك يا رب ... إنك تطلب مني ان أنقب

الأرض وأغرسها ، وان أبني فيها البيوت وأسكنها ؛ فهل تكفي هذه السنوات العشرون لكل هذه الأعمال ؟

وقد خلقتني على صورتك ومثالك ، وعندما خالفتُ إرادتك وأكلت من الشجرة المحرّمة ، انفتحت عيناي وصرت أعرف بعض المعرفة — دون سائر المخلوقات — وهذه المعرفة ، لكي تكتمل ، تحتاج الى مزيد من الوقت .

ثم انك سمّيتني « الإنسان » لكي أنسى متاعبي وهمومي . فهل أعطيتني الوقت الكافي لكي أتعب وأشقى في أوّل حياتي ، ثم أرتاح وقتاً كافياً أنسى فيه مصائبي ؟ » .

ففكّر الله قليلاً ، وأمر الإنسان ان يقف جانباً .

ثم استدعى الله ، الأسد ، وقال : « قسمنا لك ، يا « ابا العبّاس » ، عشرين سنة من العمر » .

فقال الأسد :

— « أنت أيها القدير الجبار ، وهبتني القوّة والوقار ، وجعلتني ملكاً على الوحوش ، وميّزتني بشرف النفس ، فلا آكل من فريسة غيري ، ولا أشرب من ماء ولَغ فيه كلب .

وقد سمّيتني « الأسد » ليبقى عندي الرأي الأسدّ والحزم

الأشدّ ، وانا أخاف ، إذا طال عمري ان يفسد أمري ، لأن الحاكم ، اذا طالت مدّته ، فترت همّته وزهدت فيه رعيّته »

فحسُنت كلمة الأسد في عيني الله ، واختصر عشر سنوات من عمر الأسد وأضافها الى عمر الإنسان .

* * *

ثم استدعى الله ، الحصان ، وقسم له عشرين سنة .

فقال الحصان :

— « أنت يا طويل العمر ، خلقتني من رياح الجنوب ، أبيّاً عربياً ، والخير معقود بناصيتي ، أرهب المشركين بصهيلي وأعزّ المؤمنين بصولتي . على صهوتي يرتفع النبيل عن ابن السبيل وقد لقبتني « أبو الخيل » لأني أختال تيهاً في مشيتي . وسمّيتني « الحصان » ، لأنك حصّنتني بالعنفوان وأطلقتني للجهاد في كل ميدان .

وانا أخشى ، اذا امتدّ بي زماني وطال رهاني ، ان أعثر بالتالي ، فأخسر عنفواني ، لأن المثل يقول : « لكل كريم نبوة ولكل جواد كبوة . وانا أجلّك عن سلوك سبيل الترضيات في تقسيم المقدّرات ، لكن ، حاشاك ، سيدي ، ان تتغاضى عن استماع بعض الإلتماسات .

فأثنى الله على موقف الحصان ، لأنه يُفضّل الموت على الهوان ، واقتطف عشر سنوات من عمره أضافهـــا الى عمر الإنسان .

* * *

واستدعى الله ، الثور ، بعد ذلك ، وقال له : « قسمنا لك ، يا « ابا الخير » عشرين سنة » .

فقال الثـــور :

– « يا حامل القسطاس ، للعدل بين الناس ، عندما خلقتني خلقت النير على عنقي ، وألقيت أثقال المسؤولية على كاهلي ، حتى ظن بعض الناس ، في قديم الزمان ، انني أحمل الأرض على قرني .

لكنك ، يا رب ، سمحت لي أن أثور أحياناً ، فأقطع كل وثاق ، اذا بلغ الاستغلال حداً لا يطاق .

وبما أنك سمّيتني « الثور » ، وبما ان « الثورة » مشتقّة من « الثور » لذلك ، أخشى اذا طال أجلي ، أن أحمل ، يوم الدينونة ، مسؤولية جميع الثورات والانتفاضات على وجه الأرض ... ولكن ، ان ساء ظنّي بنفسي ما ساء ظنّي بالله .

فقال الله : « كفى » ! واقتطع من عمر الثور عشر سنوات أضافها إلى عمر الإنسان .

* * *

ثم استدعى الله ، « الأتان » ، أي الحمار .

لكن الحمار لم يحضر .

ونادى المنادي باسمه . . . ، مراراً وتكراراً ، ومع ذلك لم يحضر ، فخرج يبحث عنه ، فاذا الحمار واقف قرب الباب مشغولاً ببعض الحشائش والأعشاب .

وعندما حضر الحمار ، سأله الله :

ـ « ألم تسمع المنادي يناديك باسمك ؟ »

قال الحمـــار :

ـ « عفواً ، يا سيدي ، فقد نسيت اسمي ! »

فغضب الله وقال :

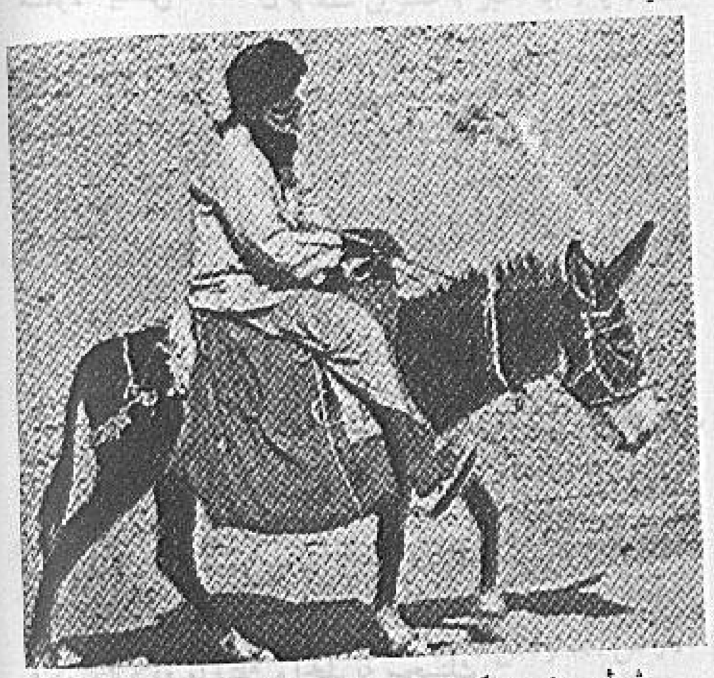
ـ « عندما كوّناك ، سميناك « الأتان » ، وناديناك الآن بهذا الاسم الجميل الرنّان .

اما وقد نسيت اسمك الحقيقي ، لذلك سيكون اسمك ، من الآن وصاعداً « الحمار » ، بسبب حمرنتك وغباوتك ، فتكون البلادة مزيّتك والحمرنة سجيّتك .

وتكون كذلك ، بئس المطيّة ، ان أوقفوك أدليت ، وان تركوك ولّيت ، وتكون قليل الغوث كثير الروث .

ويكون التبن عليقك وكل منكود الحظ رفيقك ، فلا تمشي بعد الآن ، الا والرسن في رأسك والعصا على قفاك . لكي يصبح فيك قول المثل : « لولا الرسن والعصا ، كان الحمار أول من عصى » .

وتبقى عاجاً أعجمياً ، في عشيرة الحيوانات ، مدى الحياة . »



ثم أمر الله ان يكون عمر الحمار عشرين سنة .

فنهق الحمار وشهق وتمطى . وضرب أخماساً في أسداس ، وقال :

ــ « عشرون سنة ، يا ربّ ! والحمل على ظهري والرسن في رأسي والعصا على طرفي والتبن عليقي ومنكود الحظ رفيقي ، فأين هو حلمك يا ربّ ! فإذا كنتُ قد نسيتُ اسمي ، فلستُ أول مَن أساء استعمال ما لا يُحصى من النِعَم التي اسبغتها على سائر مخلوقاتك » .

فعاد الرب ونظر في ظلامة الحمار ، بسبب عفويته وبراءته ، وحذف من عمره عشر سنوات أضافها الى عمر الإنسان .

وكان الانسان ما زال يقف جانباً ، ويقبض الزيادات ، فتلمّظ وامتعض من هـــذه الزيادة الجديدة ، غير المجيدة ، فزجره الله وقال : « مَن يأكل الحلو يصبر على المرّ » .

* * *

ثم أمر الله ان يُحضروا اليه الثعلب ، وقال له : « قسمنا لك ، يا « ابا الحُصين » عشرين سنة » .

فدندل الثعلب ذيله بين فخذيه ، تأدّباً ، وقال :

ــ « سبحانك اللهمّ ، يا قاسم الأقدار وكاشف الأسرار ، عندما قسمتَ لي قسمتي في الحياة ، جعلتَ مهنتي السياسة ، لأني واسع الحيلة ، أقول غير ما أضمر ، وأكتب غير ما أعني ، وألجأ الى السفسطة في الكلام ، لإفحام الأخصام .

ورجل السياسة ، يا سيدي ، يتعب على لسانه ، لكي يتملّق بعض أتباعه وأعوانه . فان ربح ثقة العوام خسر ثقة الحكّام .

وفي غالب الأحيان ، اذا طال عمر رجل السياسة ، ودنت ساعته : وجد نفسه ، لا مع ضميره بخير : ولا مع الناس بخير . ولا سيّما متى شاخ وصار لا يعرف الغلط من الشطط . ولذلك قيل في رجال السياسة : « اذا زادت أعمارهم زال اعتبارهم » .

فاكتفى الله بهذه النبذة من مطالعة الثعلب ، بالنظر لضيق الوقت . واستعـــار من عمره عشر سنوات أضافها الى عمر الانسان .

* * *

ثم استدعى الله : « البومة » ، فأسدلت جفنيها على عينيها . لئلا تغشاها العشاوة من تألّق أنوار ذي الجلالة ، وتهيّبت .

فقال الله : « قسمنا لك ، يا « ام نعسان » عمراً في حدود العشرين سنة » .

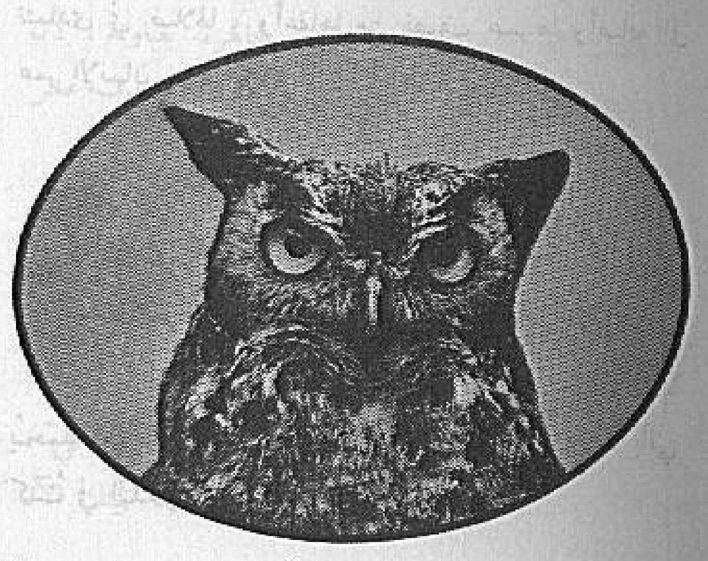
فقالت البومة :

— « أنت يا ذا البهاء ومبعث الضياء ، عندما وهبتني الحياة ، منحتني ان لا أرى الأشياء الا في الظلام ، لكي أتعاطى الفلسفة .

فأنت ، في البدء ، خلقت النهار والليل ، ثم خلقت العلم والفلسفة .

واذا كان العلم هو رؤية الحقائق ، على حقيقتها ، في ضوء النهار ، فان الفلسفة هي رؤية الحقائق، في الظلام، لا كما هي ، بل كما يجب ان تكون . هذا هو الفرق بين العلم والفلسفة .

و « ما يجب ان يكون » يخضع دائماً لشتّى الظنون ، فالذي أراه صواباً في أوّل الليل ، قد يصبح سراباً في آخر الليل ، لهذا ، نحن معشر الفلاسفة ، الباحثين في الظلام ، نميل دائماً الى التشاؤم في الحياة ؛ لأن النظريّة تصبح شيئاً ، والنظر شيئاً آخر ، في بعض الأحيان .



لذلك ، نحن نخشى اذا طالت حيـاتنا ، ان نرى بأعيننا بطلان بعض نظرياتنا . لأن سائر الناس يتداولون بما يعرفون . ونحن نتعامل مع ما نجهل .

وأنت تعلم يا ربّ ، ان الناس يعبدونك ، إمّا طمعاً بثواب . او خوفاً من عقاب . اما نحن الفلاسفة ، فاننا نتعامل معك ، في بعض الأحيان . دونما حساب ليوم الحساب . وذلك عندما نحاول تفسير إرادتك خلافاً للوحي الذي أنزلتَه على صفوة أنبيائك ، فاذا طالت حيواتنا تزايدت هفواتنا ... »

ولما كان الله لا يأبه بأقوال الفلاسفة والمتفلسفين ، لأنهم يخلطون الشك في اليقين ، نهى البومة عن إتمام مقالها ، لئلا تتمادى في ضلالها ، وأعفاها من نصف عمرها وأضافه الى عمر الإنسان .

* * *

ثم استدعى الله : القرد ، وقدّم له عشرين سنة .

فمشط القرد لحيته بأصابعه وأقعى على طرفه ، وقال :

— « يا صاحب الجلال ، لك الحمد على كل حال : اذ لا يُحمد على مكروه سواك ... انك تتذكّر ، ولا شكّ ، بأنني كنتُ في البدء إنساناً سويّاً .

وكنتُ أتعاطى فن التمثيل ، فأبعث البهجة في نفوس الناس ؛ لكنك ، جلّ جلالك ، أتهمتني بإلهاء العباد عن الجهاد وبصرف انتباه الناس عن العمل إلى التأمل والكسل .

ولذلك مسختني قرداً زرياً ، فقيل : « أكثر من القرد ما مسخ الله ! » وجعلتني عبرة لمن يريد ان يعتبر ؛ وصيّرتني مهزأةً للناس ، وأطلت عمري لكي تطول أيام مهانتي . مع أني كنت أتعاطى الفن للفن ولا طمع لي بابتزاز الناس .

ولكن ها ان كثيرين من أبناء البشر ، في هذه الأيام ، يتعاطون فن التمثيل ، بلا وازع ، حتى صار عدد الممثلين ، أحياناً أكثر من عدد المتفرّجين ، ومع ذلك ... »

فغضب الله وانتهر القرد ، بسبب مجاهرته بغباوته ، لأن مَن تدخّل بما لا يعنيه ، سمع ما لا يُرضيه . وحذف عشر سنوات من عمر القرد أضافها الى عمر الإنسان .

* * *

واستدعى الله ، بالتالي ، « الخلد » وقسم له عشرين سنة .

فقال الخلد :

— « يا فاطر الوجود ، لك السجود ، انك حكمت عليّ ، منذ الأزل ، ان أعيش تحت الأرض ، وها قد أتيتك الآن

وبقيّة من تراب فوق رأسي وعلى مخالبي ، لأني أحفر قبري بظفري .

وقد جعلتني أعمى منذ خلقتني ، لكي أعيش دائماً في الظلام ، فلا أرى ولا أفهم مبلغ تعاستي ، ولا أستطيع ان أتلمّس نهاية طريقي ، ولا أمل لي في الحياة ، والمثل يقول : « لولا الأمل بطل العمل » .

ومع كل هذا أطلت عمري كثيراً ، وسمّيتني « الخلد » اي « الخلود » حتى ظن الناس اني خالد الى الأبد » .

فرثى الله لحالة الخلد وصرفه من حضرته ، وسامحه بنصف عمره وأضافه الى عمر الإنسان .

* * *

والتفت الله ، بعدئذٍ ، الى الإنسان ، وأهاب به ان يتقدّم وقال له :

– « ها قد أصبح معدّل عمرك ، الآن ، مئة سنة .

لكن ، لما كان كل حيّ – ما عداك – زاهداً في طول الحياة ، لذلك جعلنا لسائر الأحياء حياة واحدة تنتهي بالموت ... وتنتهي بذلك همومها ومتاعبها ، فاذا مات أحدها نام نوماً أبدياً .

أما أنت ، ايها الإنسان ، فبسبب طمعك في طول الحياة ، جعلنا لك حياتين : دنيا وآخرة ، وبين الحياتين حساب ، بعده ثواب او عقاب ، فلا تنتهي همومك ومتاعبك بانتهاء حياتك ، مثل سائر المخلوقات .

وقد أطلنا حياتك الدنيا ، لكي نُعطيك متّسعاً لمعرفة الخير من الشر ، والخطأ من الصواب — استعداداً ليوم الحساب — فتمرّ ، خلال حياتك الدنيا في أعمار وأطوار بعض الحيوانات والطيور ، وتكتسب صفاتها وأخلاقها ، وتستفيد — اذا أردت — من تجاربها ونظرياتها » .

* * *

هكذا صار معدّل عمر الإنسان مئة سنة ، بما في ذلك الإضافات التي ربحها من أعمار بعض الحيوانات .

وعلى أساس هذه الأسطورة ، يقال ان أوّل عشرين سنة من عمر الإنسان ، هي عمر الإنسان الحقيقي ، اي عمر الشباب ، وهو عمر البراءة والمحبة والصداقة والإخلاص .

ثم بين العشرين والثلاثين ، يعيش الإنسان عمر الأسد ، اي عمر القوّة والشهامة والمروءة .

وبين الثلاثين والأربعين ، يعيش الانسان عمر الحصان .

يبدأ شعوره بالمسؤولية ، فهو « مركوب ملجوم » ، لكنه صاحب عنفوان يصول ويجول في كل ميدان .

وبين الأربعين والخمسين ، يعيش الانسان عمر الثور ، تصير عنده عائلة ومسؤولية ، فيحمل مثل الثور . نير العمل ، بصبر وثبات ، لكنه اذا ثار اقتحم الأخطار وهتك الأستار .

وبين الخمسين والستين ، يعيش الانسان عمر الحمار ، فيرزح تحت أثقاله ويرضخ لسوء حاله .

وبين الستين والسبعين ، يعيش الانسان عمر الثعلب ، وهو عمر النضوج السياسي والمكر والمخادعة وقلة الثقة بالناس .

وبين السبعين والثمانين ، يعيش الانسان عمر البومة ، وهو عمر التشاؤم والنظر في الظلام ، اي ما وراء الموت .

وبين الثمانين والتسعين ، يعيش الانسان عمر القرد ، فيكون عرضة لهزء الناس وسخريتهم واستخفافهم .

وأخيراً ، بين التسعين والمئة ، يصير الانسان مثل الخلد ، يعيش في الظلام ، استعداداً للرقود داخل ظلام القبر ، فيشح نظره وتتقلص أحلامه ، فلا يفكر الا بالموت ، ولا يستطيع ان يتلمس نهاية طريق حياته .



عجاج القطريب : بالنهار زلمي وبالليل ذيب



أطيبُ الكلام : قبل الطعَام

❖

دخلت يوماً على الحاج فرحات ، واذا هو متربّع على حصيرة ، وأمامه طبق قشّ عليه صحن زيتون ورزمة بصل أخضر وفصائل من الصعتر والرشاد والكرّاث وقرص العنّة ، فجلست قبالته على مسند عريض ؛ وتأدّبت .

فقال : « هل تعلم يا أخ ، لماذا خلق الله جدّنا آدم ــ عليه السلام ــ أجوف ومقدوحاً من فوق ومن تحت . خــلافاً للملائكة والشياطين ؟ »

بهذا السؤال العويص جابهني الحاج فرحات .

كنت في زماني درست التوراة وكتاب « تفسير التفاسير » بالاضافة الى كتاب « القسطاس المستقيم » للامام ابو حــامد الغزالي ، وكتاب « اثبــات النبوّات » لأبي يعقوب اسحق السجستاني ، ومع ذلك لم أفطن يوماً الى ان جدّنا آدم ــ عليه

ألف سلام – كان أجوف ومقدوحاً ، من فوق ومن تحت . وقلت في نفسي ، هذا هم جديد أضيفه الآن الى همومي المعتقة .

فجمّد الحاج فرحات : لقمة كبيرة مشكلة في يده ، وأضاف :

– « الله ، سبحانه وتعالى ، أنبت الأعشاب والبقول والخضار والأشجار والأثمار والمياه والأنهار : قبلما خلق الانسان : فتساءل يومئذٍ ، اهل الجنة : لمن خلق الله هذه المأكولات والمشروبات ، لأن الملائكة والشياطين لا يأكلون ولا يشربون .

ثم جعل الله آدم من طين : وقبل ان ينفخ في أنفه نسمة الحياة ، جاء به ووضعه قرب باب الجنة ، ليعرف رأي أهل الجنة فيه ، فاجتمع حوله لفيف من الملائكة ، وراحوا يتفحصونه بكل تدقيق ، قال أحدهم : « هذا كائن أجوف » . وأضاف ملاك آخر : « وهو كذلك ، مقدوح من فوق ومن تحت » .

واحتار القوم في أمر هذا الكائن الأجوف المقدوح من فوق ومن تحت .

أخيراً قال لهم سيدنا جبرائيل – عليه السلام – : « هذا هو آدم ، الموعود المعهود . خلقه الله ، بحكمته : أجوف

ومقدوحاً من فوق ومن تحت ، لكي يأكل مـا طاب له من أعشاب وأثمار الجنّة ، ويشرب ما لذّ له من سلسبيل أنهارها » .

وأضاف الحاج فرحات : « بهذا الامتياز ميّز الله آدم ، عن الملائكة والشياطين : ان يأكل ويشرب ... ويموت » .

عندئذ فطنت الى ان شيوخ قريتي كانوا يقولون : « أطيب الكلام : قبل الطعام » ، فقلت في نفسي : اذن ، كان لا بدّ من هذه المقدّمة الأسطوريّة ، في فلسفة الضيافة اللبنانية ، لكي أقتنع بوجوب مشاركة الحاج فرحات في طعامه البسيط اللذيذ .

فقبلت دعوته شاكراً .

ولما كان العقل ، مثل المعدة ، أجوف ومقدوحاً ، ولا يتسع ، بالتالي ، لأكثر مما يستوعب ، لذلك اكتفيت بمـا أكلت ... وارتويت بما سمعت ، وانصرفت .

إسمع كلامها، تأمن ملامها!

❖

كان أبونا سليمان من أعـــداء الأحاديث المعلّبة، يكره صناعة الكلام، ويغرُف من أقرب المناهل، فيتحدّث دائماً عن أقاربه وجيرانه وأبناء رعيّته. إنهم أبطال حكاياته وشهود حال خبريّاته.

وفي ذات مساء، وبينما كنت في مجلسه الأنيس، دخل جاره ابو رضوان وقـــال ان زوجته كانت طول عمرها على «قدّ الخاطر» ولم تسبب له يوماً أي تكدير، لكنه لا يعلم كيف انقلبت امرأة أخرى – بالنسبة اليه – وصارت تعاكسه وتشاكسه، وتقضي يومها معه في المجاكرة والمقاهرة، حتى صارت الحياة معها جحيماً لا يُطاق.

فقال له ابونا سليمان:

– «سلامة فهمك يا أبو رضوان ... كانت ام رضوان تقضي نصف نهارها في مناقرة حماتها، وما تبقّى من يومها

في مجاكرة سلفتها ، واذا توفّر لديها بعض الوقت ، تصرفه في معايرة جاراتها ، ولا يبقى عندهـا متّسع لتعكير صفو خاطرك .

لكن ، من سوء حظك ، ماتت حماتها ، وهاجرت سلفتها ، ورحلت عنها جميع جاراتها ... فعلى مَن ، اذن ، تريد منها ، بالتالي ، ان تصبّ جام غضبها ، وان « تفشّ » خلقها ، الا فيك ؟ »

فقلت ، سامح الله أبونا سليمان ، انه عرف العلّة ، ولم يصف العلاج ، مع انه يستطيع أحياناً ان يستعمل بعض الآراء والخواطر ، « لتجبير الخواطر » .

ورغبت ، في نطاق بحثي عن طبائع النساء ان أختبر الأمر بنفسي . وطرقت باب ام رضوان ، ذات مساء ، وقبل ان أستوي في مجلسي وأسألها عن صحة الأخ ابو رضوان ، طفقتْ تتكلم بدون انقطاع ، فتصل حديثاً بحديث وحكاية بحكاية ، وتأخذني وتتركني ثم تردّني بسلام .

ففطنت ، عندئذٍ ، الى حكمة عمي ابو رشيد ، الذي طالما حدّثني عن شدّة شوق زوجته الى الكلام ، بالرغم من قلّة شوقه الى الاستماع ، ثم يستدرك : « ولكن ، يا عمي !... اسمع كلامها : تأمن ملامها » .

وهكذا ، اذا أردت ان تضمن رضا أية امرأة ، عليك ان توافق دائماً على صحة نظرياتها . دونمـــا حاجة الى تمحيص مضمون عباراتها .

وقلت ، غداً سأنصح الأخ ابو رضوان ان يعطّل عمل عقله لمدة ساعة كل يوم يصغي فيها بكل اهتمام الى حديث زوجته ، فيضمن رضاها .

ثم انتبهت الى ان الست ام رضوان ، وصلت في سياق الحديث الى قصة جحا والحمير . قالت :

— « سَخَطَ الدهر يوماً بجحا ، وكان له دالّة على سلطان ذلك الزمان . فطلب جحا منه ان يعمل له « تنفيعة » إسوةً بسائر رجال البطانة .

ولما كان بعض الأنصار والأعوان قد هيمنوا على أكثر المرافق ، لذلك ، تمنّى جحـــا على السلطان ان يستصدر له « فرماناً » همايونياً يخوّله بموجبه ان يستوفي حماراً من كل رجل يثبت عليه انه يخاف من زوجته .

وهكذا كان وحمل جحا الفرمان وراح يطوف من مكان الى مكان . وكان كلما حظي برجل ثبتت عليه تهمة الخوف من زوجته غرّمه بحمار — بموجب أحكام الفرمان — حتى جمع عشرين حماراً عاد بها حامداً شاكراً .

وعندما علم السلطان بعودة جحا استدعاه وسأله عما سمع ورأى من احوال الرعية في رحلته « الحمارية » .

فشرع جحا يروي على مسامع السلطان ما رأى من مشاهدات وما سمع من أخبار واشاعات . الى ان قال :

– ورأيت من جملة ما رأيت ، يا سيدي السلطان ، على شرفة احد البيوت ، في شارع البيلسان ، فتاة ، سبحان الذي براها ، وجه جميل وطرف كحيل وثغر مثل السلسبيل ، فتمنيت ان تضمها الى حريمك ، لتسليك وتحليك وتدفيك وتجدد لك بهجة شبابك و ... »

فصاح به السلطان : « كفى كفى ، لئلا تسمع الملكة كلامك فتعكر صباحنا وصباحك ! »

فتناول جحا ، الفرمان ، من عبه ، وقال : « وعليك حمار ، يا سيدي السلطان ، بموجب هذا الفرمان » .

* * *

وفطنت انا عندئذ ، الى انني جئت بدون استئذان ، ولست بالتالي في أمان ، وحتى لا أدفع حماراً – بموجب الفرمان – لملمت أذيالي وأدبرت .

الفاضي بيعمل قاضي، وقليل الخواص، قوّاص



لكل مثل قصة .

على هذا الأساس بدأت أتعامل مع الأمثال الشعبيّة ، فحظيت بتواريخ وحكايات أمثال متعددة ، وما زالت في قائمتي عدة أمثال يتيمة ، منها المثل الشعبي المشهور : « عدّى السبت في طرف اليهودي » .

لذلك رحّبت ترحيباً حاراً بالأخ أبو داود ، عندما جاءني أمس ، ومعه زوج شقيقته وثلاثة من رجال عائلته ، قال :

— « جئت أروي لك حكاية « عدّى السبت ... » وهؤلاء هم شهود الحال » .

واستوى ابو داود في مجلسه وأصلح وضع طربوشه على رأسه وتنحنح قبل ان يبدأ حديثه ، وإذا برجل ختيار من أفراد حاشيته ، يقوطب عليه ، ويفاجئني بسؤال ، قال :

- « هل تعلم يا أخ ، لماذا خلق الله ، البنادمين : ناس يسار وناس يمين ؟ »

فقلت في نفسي ، لا بأس ، هذا فتح باب للحديث .

وبناءً على خبرتي الطويلة مع هؤلاء البنادمين ، صرت أعرف أن السائل منهم لا يسأل السؤال ، لكي يسمع الجواب ، بل يفترض دائماً انني لا أعرف ، ويتبرّع لي بالجواب .

ثم فطنت الى موضوع اليسار واليمين ، وتذكّرت انني حاولت في أيام شبـــابي ان أفهم أسرار هذا الموضوع ، فأنفقت من عمري خمس عشرة سنة حتى عرفت الفرق بين « الكيف » و « الكَمّ » ، وقلت ، في ذلك الوقت ، مَن يضمن لي ان أعيش ثلاثة قرون ، حتى استوعب سائر الحقائق ، فانكفأتُ من أوّل الطريق ، لأن خردق بارودتي لا يطال الا الطرائد الجاثمة على الأرض ، ولأني أربأ بذخيرتي من الضياع في محاولات اصطياد الأهداف البعيدة المدى ، بلا طائل .

وعندما رجعت بأفكاري الى مدار الحديث ، وجدت ان رجلاً آخر من أفراد الحاشية ، قد تصدّى للكلام ، وبدأ يروي حكاية لا علاقة لها في سياق الحديث ، قال :

- « عندما خلق الله المخلوقات ، جعلها طائفتين : طائفة الطير وطائفة الحيوان ، وجعل لكل طائفة لغة خاصة ، فلا تفهم الطير لغة الحيوان ، ولا الحيوان لغة الطير .

لكن الله عزّ وجلّ ، لحكمة نجهلها خلق « الوطواط ، وجعله طائراً وحيواناً في نفس الوقت .

وصار أخونا الوطواط ، اذا جالس بعض جهابذة البواشق والعقبـــان ، تكلـّم معهم بلغتهم وانتحل هويتهم وعرف مكنوناتهم . واذا اجتمع بجماعة من فطاحل الفئران والجرذان طوى جانحيه وقرنب أذنيه وخاطبهم بلغتهم وعرف أخبارهم وأسرارهم ».

وبينما كان أخونا هذا يشدّني ، بالحديث ، الى جهابذة العقبان وفطاحل الفئران والجرذان ، كان المتحدّث الأول ما زال طائشاً في حديثه عن اليمين واليسار .

وكان بودّي ان أوزّع انتباهي على جبهتين ، لكن الأخ ابو داود كان هو الآخر ، قد أطلق لنفسه العنان ونزل الى الميدان ، وبدأ بالهجوم والطعان ، قال :

– « إبن الستّين للسكّين و « شحتوك » اذا دعس الزلمي بالسبعين والثمانين ، وقلّ سمعه وشحّ قشعه ، مثل ابن عمي ناصيف هذا ... انه يبدأ ولا يعرف اين ينتهي ، يحوم حول الموضوع ، كما يدور الكلب حول ذيله ، يركض وراءه حتى يدوخ ، فاذا قبض عليه ، عضّه وعوص عوصتين ، ورقد ،

فقلت : « هذا جميل جداً ، ولكنني يا أخ ابو داود ، قبل ان تتكرّم عليّ الآن بقصة « السبت واليهودي » أريد ان أستفيد من خبرة الأخ ناصيف في اليسار واليمين » .

قال : « ناصيف ، « بياكل عسل وبيتبعّج بصل » — كما يقول المثل — وهو لا يعرف يساره من يمينه ولا كوعه من بوعه ، فاذا كنت تجهل ، حقاً ، ما هو اليسار وما هو اليمين ، فعندي عنهما أخبار كثيرة .

فاليمين هو خالي عبّاس الذي كان بإمكانه ، لكثرة أمواله ، ان يشتري كل ما في أسواق بيروت من لحم وخبز وفاكهة ، لكن معدته أبت هضم الطعام ، فمات من الجوع .

أما اليسار ، فهو ابن عمتي سلّوم الذي يأكل ولا يشبع ، شارطناه يوماً على أكل عشرة أرغفة ، فطلب ان نمهله ربع ساعة ، خرج ورجع بعدها وقال : « هاتوا لي خبزاً » .

فأتيناه بعشرة أرغفة ، فالتهمها بسرعة ، فسألناه الى أين ذهب ورجع منذ قليل .

قال : « خفت ان لا يكون بامكاني أكل عشرة أرغفة ، فذهبت الى أقرب فرن واشتريت عشرة أرغفة أكلتها بكل سهولة ، فقويت ثقتي بنفسي عـلى أكل أرغفتكم العشرة ، ورجعت اليكم في الحال » .

وبينما كان ابو داود يتبرّع لي بأمثلة حيّة عن اليمين واليسار كان رجل آخر من الحاضرين قد شق رجله بحكاية جديدة، عن امرأة عنيدة ، وعندما انتبهت اليه كان قد دخل في مؤخرتها – اي مؤخرة الحكاية – قال :

– « ... وحملت المرأة نعارة « القاورما » وألقتها على الأرض : فراحت طراطيش ، ورجعنا خائبين ، وصار فينا مثل عزيمة الحمار على العرس : سخره وجوع وقلّة اعتبار ».

فتناول رجل آخر حبل الحديث ، قال :

– « على سيرة « القاورما » يُحكى ان جماعة من اختيارية احدى القرى ، جلسوا يتناقشون في اي ثمر هو أطيب من سائر الأثمار ، فحسم الموضوع بالتالي ، أحد اصحاب الرأي ، قال :

– « عليم الله ، أطيب ثمر على وجه الأرض هو « القاورما »

فتوجّهت ، مجدّداً ، الى الأخ ابو داود وطلبت منه ان يروي لي حكاية السبت واليهودي ، واذا بصاحب حكاية الوطواط يستوي في مجلسه ويقول :

– « بيرجع مرجوعنا للوطواط ... صار الوطواط ياخذ حكي ويجيب حكي ...

فقاطعه ابو داود قال :

– « متى شاخ الرجل صار يحكي حكاياته « بالتقسيط » ... فالتدقير في الحديث هو أوّل علامات الختيرة » .

ثم ضرب ابو داود لي مثلاً ، قال :

– « يُحكى ان رجلاً متقدّماً في السن ، كان مسافراً على ظهر حمار ، من عاليه الى دير القمر ، وعندما وصل الى « قبر شمول » ، عثر الحمار به عثرة بسيطة ، فصاح به : « نار ... »

ثم هبط الحمار بصاحبه خمسين كوعاً حتى جسر القاضي ، ثم صعد به ستين كوعاً حتى بلغ كفرحيم ، فأضاف الرجل : « وغضب الجبّار ! »

هكذا شتم الرجل الختيار حمارَه بالتقسيط ، فلا بأس إذن ، اذا جرى حديثنا اليوم ، على أقساط ، منها ما هو معجّل ومنها ما هو مؤجّل » .

فخشيت ، عندئذ ، ان ينقضي نهاري : من هنا قصة بلا ذَنَب ، ومن هناك ذَنَب بلا قصة ، فلا أقبض بالتالي سوى بعض القرافيط .

ولأني خبير في أطوار البطّالين المتلوطعين الذين ينتدبون أنفسهم قضاة وأصحاب نظريّات وفلاسفة وأرباب دواوين ، والذين يصح فيهم قول المثل : « القاضي بيعمل قاضي ، وقليل الحواص ، قوّاس » ، فاذا شطحوا في أحاديثهم ، فإلى ما لا نهاية له .

لذلك قلت للأخ ابو داود : أرجو ان تشرفني بزيارة ثانية في أقرب وقت ممكن ، ولكن بدون « شهود الحال » .

زَمِّر بِنَيِّك

❖

اذا كلّفت رجلاً بمهمّة ، ولا سيما اذا كان من « أصحاب الحلّ والربط » ، عليك ان « تشوف خاطره » ، سلفاً ، حتى تضمن قضاء حاجتك ، فيقال لك ، عندئذٍ : « زمّر بنيّك ! »

وأساس هذا القول الشائع ، هو أن رجلاً من إحدى القرى قرّر ان ينزل الى المدينة ، لقضاء إحدى الحاجات ، وما أن ذاع الخبر في القرية ، حتى جاء أحد جيرانه ، وقال :

— « يا جار ، الجار موصّى بالجار : أوصيك ، بالله ، ان تشتري لي طربوشاً من محـل « شكري السمنه » ، تحت لوكندة استراليا ، ومهما كان ثمنه أدفعه لك عنـد رجوعك بالسلامة ... مع الشكر سلفاً » .

ودخل الجار واتخذ له مكاناً في مجلس الرجل ، ومدّ حديثاً. ثم قدم رجل آخر ، وقال :

— « بلغني الآن انك ذاهب غداً الى بيروت ... يا معوّد ! انا بحاجة الى مداس جديد أرجو ان تشتريه لي من محل عبّاس الطرطوسي ، في آخر سوق أبو النصر ، وسأدفع لك ثمنه ، مع حبّة مسك ، عند رجوعك بالسلامة ... مع الشكر سلفاً » .

ودخل هذا أيضاً واستوى في مجلسه ، قرب الرجل الأول .

ثم أقبل مختار القرية ، وقال :

— « بلا أمر عليك ! أرجو ان تشتري لي بساطاً شامياً مثل البساط الذي اشتراه الحاج محفوظ ، من محل ابو صفوان في سوق البزركان ، وعند رجوعك بالسلامة أدفع لك ثمنه بالكمال والتمام ... مع الشكر سلفاً » .

ودخل المختار وجلس مع الرجلين وشاركهما في الحديث .

ثم قدم خوري الرعيّة ، وقال :

— « يا سبحان الله ! كنت اليوم أبحث عمّن أوصيه على « بطرشين » جديد ، فما دمت أنت ذاهباً غداً الى بيروت ، وبالنسبة الى حسن ذوقك في اختيار الأشياء اللائقة ، لذلك أطلب منك ، برضا الله عليك ، ان تقصد محل الديراني في محلة السيوفي ، وتشتري لي بطرشيناً ، من أحسن جنس ، ولا يكون لك أدنى فكر ، من حيث تسديد الثمن اليك ، قريباً ، ان شاء الله ... مع الشكر سلفاً » .

ودخل المحترم واتخذ لنفسه مقاماً في صدر المجلس.

ثم أقبلت إحدى النساء، وقالت:

— «يا «بو جبران» إيدي بزنارك! بنتنا «نسطاس» مخطوبة، «عقبال» الأفراح عندكم، ونريد ان نهديها صندوق خشب جوز لجهازها، فالرجاء ان تشتريه لنا من سوق النجارين وسيدفع لك زوجي ثمنه ... مع الشكر سلفاً».

ودخلت المرأة ولثمت يد المحترم وطلبت رضاه وجلست جانباً.

وكان الرجل: كلما أوصاه أحد على حاجة واكتفى بالشكر سلفاً اكتفى هو بالقول: «حسب التيسير!»

وجاء، أخيراً، رجل، وقال:

— «خُذ هذه الليرة، فاذا مررت قرب بائع الزمامير، أرجو ان تشتري لي بها زموراً أهديه الى ابني بمناسبة العيد».

أجاب الرجل، بصوت مرتفع:

— «زمّر بنيلك!»

فجرى جوابه مثلاً.



وبعدين ... لوين ؟



الحساسة في الجلود

❖

عند العامّة ، في لبنان ، ما يُسمّى « حساسة في الجلود » ، وهو عاطفة تتضمّن رهافة الحسّ والأنفة والذوق وإكرام الضيوف وإغاثة الملهوف ، وغير ذلك من الصفات الحميدة ، ويضربون لك مثلاً عنها :

ـ عاش في إحدى قرى لبنان رجل تقي نقي ، حكيم كريم موفور الكرامة .

وكان يلبس عباءة من شعر الماعز ويجلس في ساحة القرية ، فيُقبل اليه الناس يسمعون أقواله ، ويتبرّكون بلثم طرف عباءته.

وعندما مات تبيّن انه أوصى بأن تباع عباءته ، يوم مأتمه ، ويُصرف ثمنها في سبيل البر .

وحينما اكتظّ مأتم الرجل ، وقف أحد رجال الدين ، وقرأ وصيّة الرجل ، على مسامع الجمهور ، وحمل العباءة وعرضها للبيع .

فأخذ الحاضرون يتزايدون على العباءَة :

– عليَّ بعشر ليرات !

– عليَّ بعشرين !

– عليَّ بثلاثين !

أخيراً وقف أحد أشهر أغنياء البلاد وقال : « عليَّ بمئة ليرة ! »

فسكت جميع المتزايدين ما عدا رجلاً واحداً انبرى له وقال :

– عليَّ بمئة وخمسين !

فصاح الغني : « عليَّ بمئتين !

قال الرجل : « عليَّ بمئتين وخمسين

وصار الغني ، كلما زاد ، زايد عليه الرجل حتى قال أخيراً :

– عليَّ بألف ليرة !

فقال الغني : « بارك الله لك يا أخي بالعباءَة . وأعطاك حسب نواياك ، انما أريد أن أسألك : أنت تزايد عليَّ الآن : عن جود ، ام عن مال موجود ، ام عن إرث من آباء وجدود ؟ »

قال الرجل : « لا عن جود ، ولا عن مال موجود ، ولا عن أرث من آباء وجدود ، بل عن حساسة في الجلود » .

بو علي سيري

❖

« أم علي سيري » حشرة صغيرة نصف كروية حمراء مرقّطة يتعاطف معها صبيان القرية ، دون سائر الحشرات ، فاذا رآها أحدهم وضع إصبعه أمامها فتصعد إليها وتسير عليها ، فيغنّي لها أغنيّة خاصة :

يا ام علي سيري   حميت الشمس طيري

فتطير أحياناً ، اذا شعرت بحرارة الشمس وتهبط في مكان قريب ، فيفرح الولد بها ، لأنها سمعت وفهمت واستجابت .

وفي بعض المناطق اللبنانية يسمّونها « الحاجه سيده » .

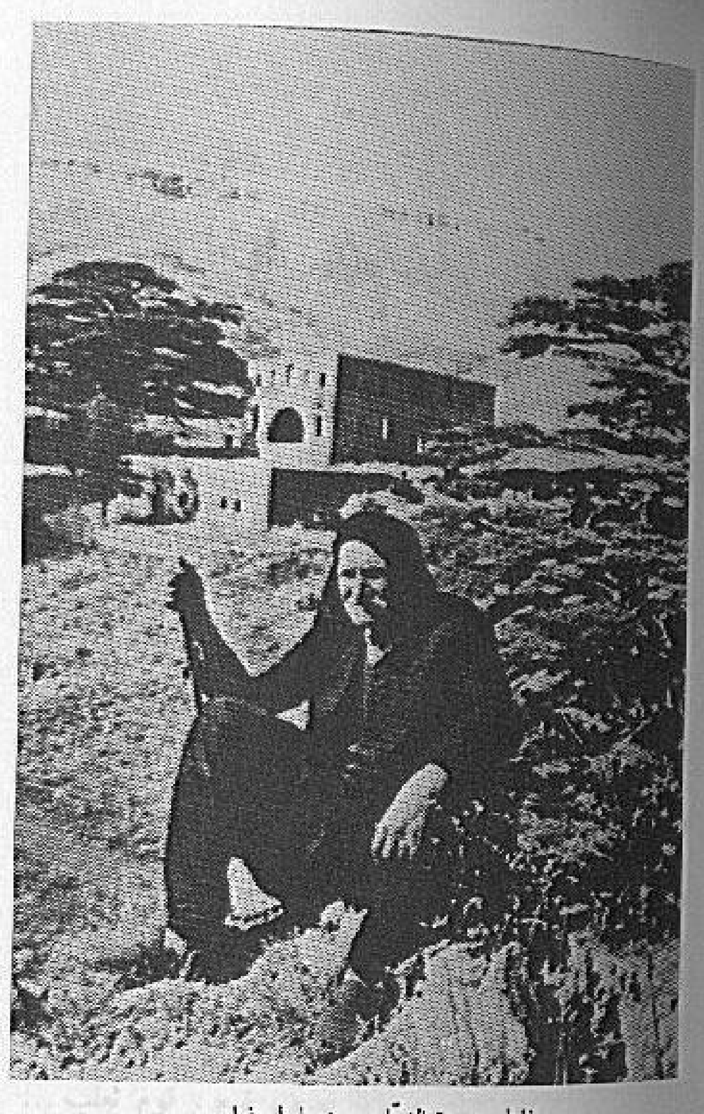
وقد لاحظت أنها موجودة في بلاد الانكليز ، وهم يسمّونها « السيّدة العصفورة » . ويتعاطف الأولاد معها هنالك . ويتجاملون معها بكلمات رقيقة كلما شاهدوها في حدائقهم .

في إحدى قرى الجنوب رجل شيخ أطلق عليه مواطنو
لقب « بو علي سيري » ، ويُعلل مختار القرية سبب تسمي
الرجل بهذا الإسم ، فيقول ان الشيخ هذا ناهز المئة سنة ، وم
زال يومياً يخرج من بيته مع شروق الشمس ؛ ويبدأ مسيرت
الطويلة في أزقّة القرية ، فيسير على مهله من زاروب الى زاروب
حتّى تغيب الشمس ؛ فيعود الى بيته ، ليعاود مسيرته في صباح
اليوم التالي ، لذلك لقّبه أهل قريته « بو علي سيري » .

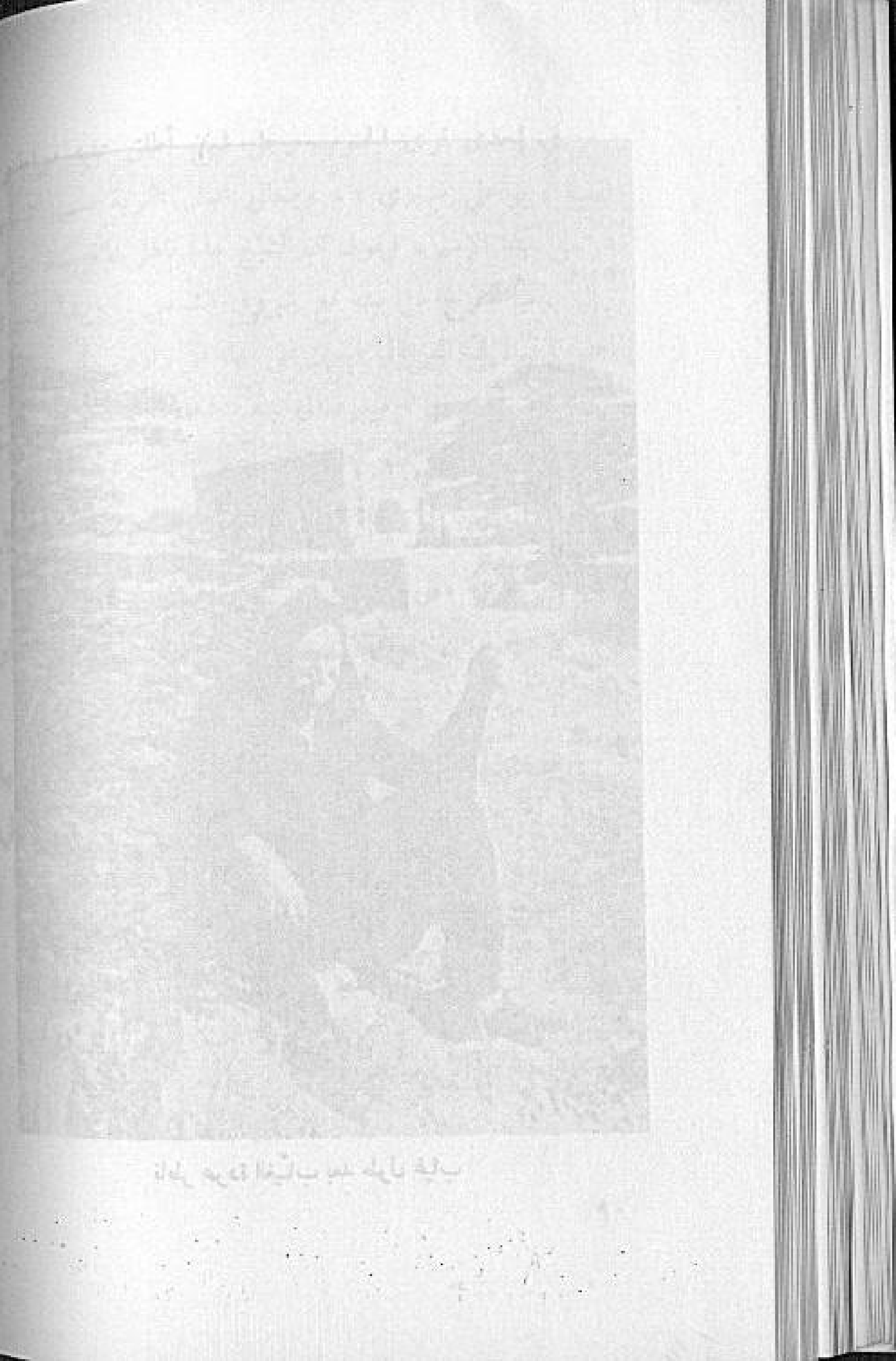
ويضيف المختار ، أنهم لقّبوه بهذا اللقب ؛ لأنه يشبه « أ
علي سيري » ؛ التي تذهب الى الحج سنوياً – كذا – فهي
مع أنها تسير على مهلها ؛ لا بدّ ان تصل أخيراً الى الديـار
المقدّسة ، وتتمّ فريضة الحج وتعود الى بلادها .

ولذلك عندما يراها أحد الناس واقفة على غصن ، يحثه
على السير ، حتى لا يفوّتها موسم الحج ، بقوله : « ام علي
سيري ! »

ولله في خلقه شؤون .



ناطر عودة الغيّاب بعد طول غياب



ومات الرجل مجبور الخاطر

❖

عقيب زلزال سنة ١٩٥٦ ، زرت إحدى قرى الجنوب ، بحكم وظيفتي في مصلحة التعمير ، لدرس أحوال المتضررين .

وقبل الدخول الى أحد البيوت قال لي مختار القرية :

– « صاحب هـذا البيت من ضحايا الزلزال ، رجله مكسورة ، لذلك قلّ عمله فكثُر كلامه . لكن حديثه طريف ، فاذا كنت ممن يهتمّون بقصص الناس ، فاسمع قصته ، ولا بأس » .

كان « ابو عساف » رجلاً عامر الجسم يرقد على الأرض ، والفاقة تكتنفه من كل جانب . وقد اختلط شارباه بحاجبيه ونهض أنفه بكبرياء بين عينيه ، ففتح فمه عن بقيّة من ثلاثة او أربعة أسنان . وقال :

– « كنت يا استاذ ، نائماً نصف نوم ، نوم ثعلب ..

الفقير ، يا أخ ، مثل الثعلب ، ينـــام « عين مفتحه وعين مغمّضه » لأنه يبقى خائفاً من غدرات الليالي » .

وأضاف ابو عساف :

— « وفجأة سمعت كأن رجلاً يمشي على السطح من الشمال الى الجنوب . فصرخت : « أنا بو عساف ، اللي بيدعس على سطحي بدعس رقبتو ! »

وتقلقل ابو عساف ، في فراشه ، كأنه يحاول ان ينهض ، تماماً كما نهض في تلك الليلة ، وأضاف :

— « حملت العصا وصعدت الى السطح . الدنيا عتم . لم أرَ أحداً . فوقفت على حافة السطح ، أتلفّت حول البيت ، واذا برجل كان مختبئاً خلف المحدلة يباغتني بدفشة من ورائي ، فوقعت عن حافة السطح وكسرت رجلي » .

بينما كان ابو عساف يروي واقعة الحال ، حسبما تراءت له ، كانت ام عساف « تبرّ » جانباً :

— « يا فضيحتنا ! كلما زارنا أحد روى له ابو عساف قصته ، كأن أحداً سيصدّق كلامه ، يا عمي ! الهزّة أتت على دفعتين ، الدفعة الأولى كانت خفيفة ، مرّت كأن رجلاً كان يمشي على السطح ، فصعد ابو عساف الى السطح فجاءت

الدفعة الثانية ، أقوى من الأولى ، ودفشت ابو عساف ورمته عن حافة السطح ، وخرّبت الدنيا ، وما زال يقول : « الزلمي دفشني ورماني » .

بعدما أنهى الرجل قصته تنهّد ، وقال :

– « كسرت رجلي ، فداك يا استاذ ، انما مصيبتي في زوجتي التي لا تصدّق كلامي ، وكلما رويت قصتي كذّبتني قدام الناس » .

فرثيت لحالة الرجل .

وعندما خرجنا ، عاتبت المختار عتاباً قاسياً ، قلت له :

– « يا ويلك من الله ، انت مختار الضيعة ، كيف تركت هذا الرجل المسكين في محنته ، فريسة قلّة حشمة زوجته ؟ ... عليك ان تلفّق قصة ... ان تختلق خبرية ... ان تروّج إشاعة ان فلاناً الفلاني – مجرد اسم انسان – من قرية « كذا » كان قد جاء يسرق محدلة بيت ابو عساف ، فصعد ابو عساف اليه ، فغدره الرجل بدفشة ، فوقع ابو عساف وكسر رجله » .

ورجعت الى بيروت مجبور الخاطر ، لأنني رسمت خطّة أجبر بواسطتها خاطر رَجُل مكسور الخاطر ، وهنّأت نفسي ، سلفاً على وضع خاتمة جميلة لقصة حزينة .

لكن جمال خاتمة القصة لم يحجب عني بشاعة مأساة بطل القصة المكسور الرجل والخاطر، قلت : ليتني فطنت الى رجله قبل خاطره ، اما كان اجدر بي ان استعمل براعتي في تجبير الأرجل ، كما استعملها في « تجبير الخواطر » عندما تدعو الحاجة .

وصارت مأساة الرجل هماً من همومي . وعقدت النيّة أخيراً على خطّة جديدة .

وذهبت الى القرية ، فقيل لي : « مات ابو عساف » .

فدخلت أُعزي زوجته . فقالت :

– « هل تتذكر قصة السطح ؟ كان المرحوم على حقّ ... ظهر غريمه ... وانا اعتذرت للمرحوم : لأني كنت مخطئة ، فمات والحمد لله ، مجبور الخاطر » .

القسم الثالث

ألف مثل ومثل والمطلوب مثل واحد

لكن [illegible] هذه القصة [illegible] من [illegible]

القصة للكرد [illegible] الرحل والأطراف [illegible] التي [illegible]

أول خاطرة [illegible] كان يحضر في الأذهان [illegible]

الأرحل [illegible]

[illegible]

وصلت [illegible] الرحلة [illegible] وعقدت [illegible]

[illegible]

وذهبت إلى القرية [illegible]

فحكت أمري [illegible] فقالت :

[illegible]

[illegible] مات والحمد لله [illegible]

سألوا يعقوب الحكيم : « كيف تعلمت الحكمة ؟ »

قال : « حفظت الف مثل ، لكن يوجد مثل واحد يُغني عن ألف مثل » .

قالوا : « وما هو هذا المثل الذي يغني عن ألف مثل ؟ » .

قال : « الجاهل لا يتعلم الا من كيسه ! » .

إبنك لا تعلّمو، الدّهر بيعلّمو

❖

كان « أبو زيدون » من حكماء هذا الزمان ، فاذا تحدّث عنه رجال القرية قالوا انه يحفظ ألف مثل .

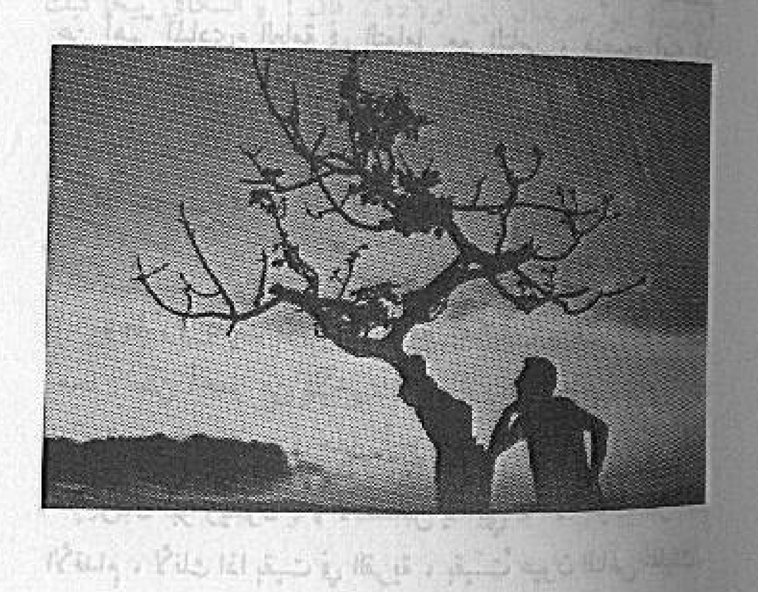
وكانت بعض أمثاله ، من تصانيف أقواله ، مع ذلك كانت لها حرمة يتقبّلها عامة الناس ، كما يتقبّلون الأمثال العريقة ، بلا جدال .

وعندما بلغ « زيدون » سنّ الرشد ، انصرف أبو زيدون الى تأديبه بالأمثال ، والى تهذيبه بالحِكَم والأقوال ، فلقّنه أولاً بعض الأمثال الغيبية ، ابتداءً من « رأس الحكمة مخافة الله » مروراً بـ« إسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم » وانتهاءً بالقول المأثور « صُوم وصلّي ، بتركبك القلّه ! »

ثم نبّه أبو زيدون إبنه الى وفرة الأقوال المنثورة – غير المأثورة – ليعرف ما هو الغثّ منها ، وما هو السمين ، قال

ان « نعوم المخزوم » كان اذا تحدّث عن رجل فقير ، قال :
« فقير ، من التقادير فجرت هذه العبـارة على ألسنة الناس ،
حتى فطن اليها ، أخيراً ، أبونا جبرائيل ، فقال : « هذا خطأ ؛
والأصح ان يقال : « فقير ، من قِلّة التدبير ... لا من التقادير »
فصارت عبارته هذه من الأقوال المأثورة في قريتنا .

هكذا عكف أبو زيدون على تهذيب ابنه وتأديبه ، وراح يستوي كل مساء في مجلسه ويَمدّ له حديثاً ، حول موقدة الشتاء :



مَصاري وَرق وَلا حِبر على وَرق.

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ.

فاستوى ابو زيدون ، في مجلسه ، ومدّ حديثاً ، فتكلّم عن أهمّ المبادىء العامة في التعامل مع الناس ، فنصح ابنه ان لا يتعامل الا مع الأغنياء لأن المثل يقول : « أبو بيضه ، لا تناقسو ! » فاذا خدمك الحظ لا تربح منه غير بيضة واحدة ، اما اذا خدمـه الحظ ، فإنه يربح منك كل ما في سلّتك من البيض ».

وحذّره كذلك من التعاطي مع الفاشلين ، قال : « سألوا جحا : مَن أحمر من الآخر : الذي زرع السطح ، ام الذي قدّم البذار ؟ » قال : « حمار أخو حمار ! »

وقال أبو زيدون : « لا تسكن يا ابني ، الا حيث تتزاحم الأقدام ، لأنك اذا بقيت في القرية ، بقيَتْ عيون الناس عليك،

اذا اغتنيت حسدوك واذا نجحت راقبوك ، لأن وجيه القرية ، كما قال المثل : « منظور مأسور ، مثل القمله براس أقرع » .

وأعرب ابو زيدون عن قلّة ثقتـه « بالحبر والورق » وأوصى ابنه ان لا يأتمن غير جيبه وان يعمل مخزنه عبّه — كما قال المثل - وان لا يتعامل مع المصارف ، ولا يأتمن الحوالات والسندات وسائر الحسابات غير النقديّات ، عملاً بحكمة الشيخ راشد : « مصاري ورق ، ولا « حبر على ورق » .

ثم انتقل الى الحديث عن الحكومة والحكام ، قـال : « حاكمك ، ان خفت منّو ، طيعو او إرحل عنّو ! » وذكر وصيّة ابو سويدان الى اولاده ، قال : « السكافي بيحاكيك وعيونو بصرمايتك ، وابن الحكومه بيحاكيك وعيونـو بجيبتك ... اذا دخلت على ابن حكومه ، خلّي ايدك بجيبتك لئلا تضيع معاملتك ! »

وحثّ ابنه ، كذلك على اجتناب المشاكل ، قال : « ولكن اذا لا سمح الله تعرّضت لمسؤوليات وأخذ وردّ واستجوابات ، فلا تنسى حكمة عمّك عبّاس ، في أيام « سفر برليك » : « ما بيخلّصني ، غير قولة : شو بيعرّفني » .

وأوصاه بالتالي ، ان يكون شجاعاً في مواقف الرجال ، لأن المثل يقول : « النذل ، يا ذلّ حالو ، ولو كان « بو زيد » خـالو ! » .

عنزه ولو طارت

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ

فاستوى أبو زيدون في مجلسه ، ومدّ حديثاً ، نقسم فئات البشر الى أجناس لكي يكون ابنه على بيّنة من أمور الناس ، قال : « توجد جماعات من البنــادمين ، خلقها الله « كمالة عدد » ، وهي :

جماعة : هيك وهيك : لا معك ولا عليك .

جماعة : « لم سمعنا » « لم قشعنا » « لم حكينا » .

جماعة : « بيمشي الحيط الحيط ، وبقول يا ربي توصّلني عالبيت » .

ثم استدرك أبو زيدون وقال : « لكن أسوأ أجناس الناس هم الحمقى ، وقديماً قالت الحكماء : « أنقر لا تناقر ،

وأحمق لا تجاكر » لأن مجاكرة الأحمق تزيده حمقاً » .
وضرب ابو زيدون لابنه مثلاً ، قال :
- يُحكى ان رجلين شاهدا جرماً أسود في المقطع المقابل من الوادي وراحا يتكهّنان في أمره .
قال الأول : « انه طير كبير » .
قال الثاني : « لا بلْ انه عنزة » .
وراح كل واحد منهما يعزز رأيه بدليل ، واذا بالجرم المذكور يفتح جانحيه ويطير ؛ فقال الأول : « ألم أقل لك انه طير ؟ »
قال الثاني : « لا ، بل عنزه ولو طارت » .
فصارت هذه العبارة من الأقوال المأثورة .

التكرار، بيصيِّر الفيلسوف حمار

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ

فاستوى أبو زيدون في مجلسه، ومدّ حديثاً عن فجور الدعاية وعن طغيان الإعلان، على الإنسان: في هذا الزمان، فروى لابنه، كيف صار الانسان عبداً مستضعفاً أمام هجوم الدعاية عليه، اينما كان، في مكتبه وفي منزله وفي معبده وفي مدرسته، وعلى الجدران وفي كل مكان، ولا سيما بعد تطوّر وانتشار وسائل الاعلام، وتسخيرها لتضليل الإنسان، في غالب الأحيان، وزجّ البشرية في جاهلية جديدة: وضرب له مثلاً: قال:

– يُحكى ان أحد ملوك الزمان، كان عنده جحش كَرِزْ ربّاه في قصره وبين أولاده، وصار يحبّه ويتوسّم أمارات النجابة في وجهه؛ حتى انه أمر وزيره، في أحد الأيام، ان يتولّى تعليم الحمار ... فقد يصير فيلسوف زمانه.

فنزل الوزير عند إرادة الملك ، مخافة ان يثير غضبه ، الا انه طلب إمهاله خمس سنوات ، يعيد الحمار بعدها اليه وشهادته في رقبتـه .

ثم حدث ، بعد ذلك ، ان اختلى الملك بزوجته ، في احدى الليالي ، وراح يحادثها في مختلف شؤون المملكة ، فروى لها قصة الحمار الذي تعهّد الوزير بتعليمه الى ان يصير فيلسوفاً .

فقالت الملكة : « سامحك الله ، ايها الملك العليم الحكيم ، أخطأت هـذه المرّة ، على غير جاري عادتك ، اذ ليس من المصلحة العامة ان يصير الحمار فيلسوفاً ، بل على العكس ، يجب ان يصير الفيلسوف حماراً ، لأن تكثير عدد الحمير ، أسلم عاقبةً وأقلّ ضرراً من تكثير عدد الفلاسفة ، في هذه الأيـام » .

فوقعت نصيحة الملكة ، موقع الرضى ، في عين الملك ، وأمر وزيره في اليوم التالي ، ان يُعيد اليه الحمار حماراً ، وأن يتولّى ، من الآن وصاعداً ، تعليم أحد فلاسفة الزمان . أصول « علم الحمرنة » الى ان يصير حماراً .

ونزل الوزير مرةً ثانيةً عند إرادة الملك ، ووضع يده على أحد كبار الفلاسفة ، واحتجزه في مكان حصين ، ومنع عنه جميع المقابلات والاتصالات ، وراح يفكّر في وسيلة يجعل بواسطتها الفيلسوف حماراً .

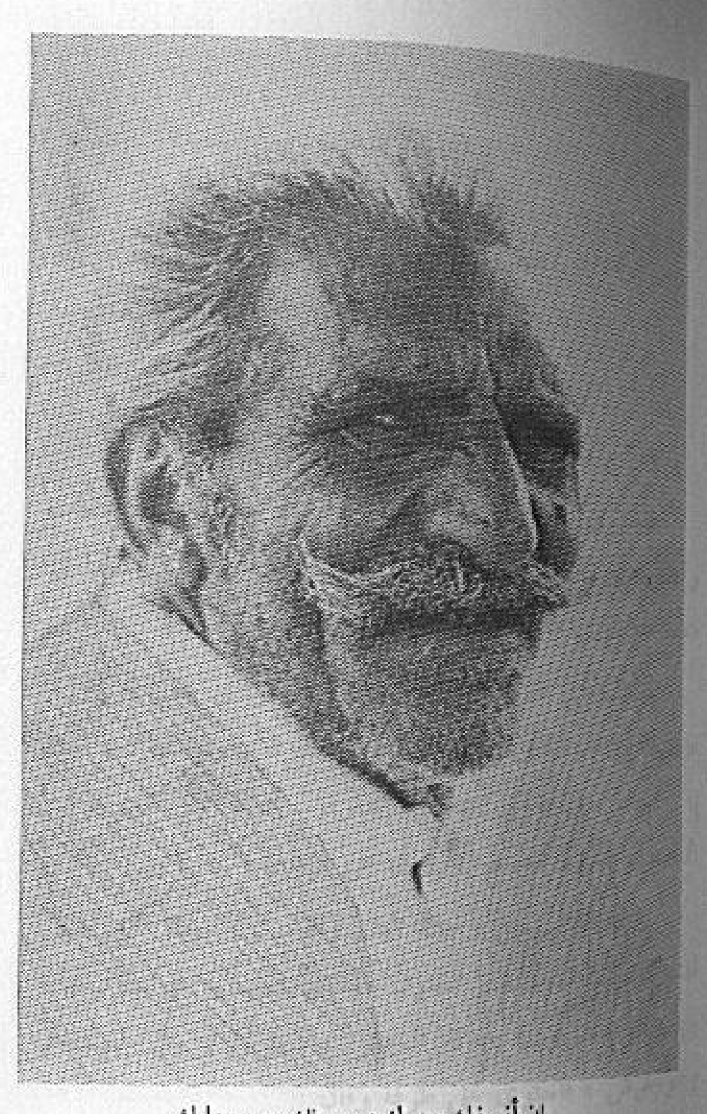
في ذاك الوقت ، كان أحد تجار المدينة قد أصيب بلوثة في عقله ، نتيجة اصابته بخسارة في ماله . وراح يهذي . طوال يومه : « سبعه مع سبعه ، عشرين » ، وهلمّ جرّاً .

فقبض الوزير على التاجر المجنون واحتجزه مع الفيلسوف ، ليرى ماذا يكون من أمره .

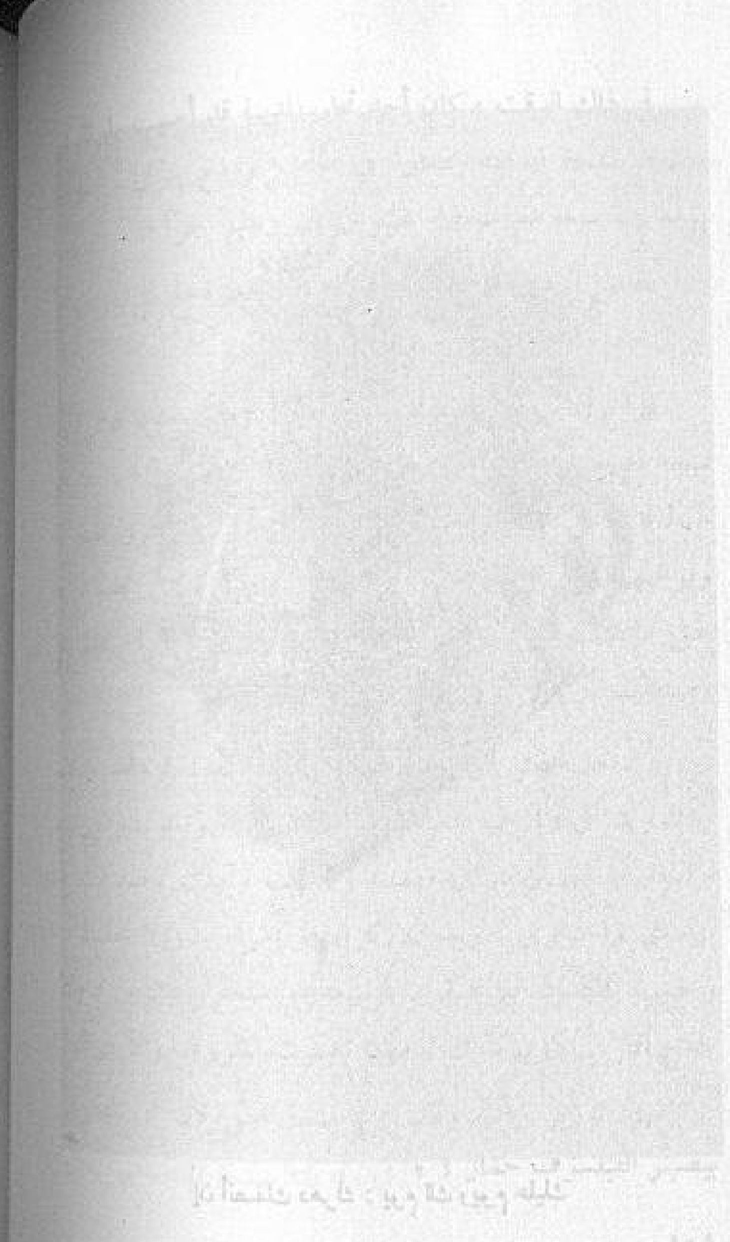
فراح التاجر يقول للفيلسوف : « سبعه مع سبعه ، عشرين . سبعه مع سبعه ، عشرين . سبعه مع سبعه ، عشرين » ، بدون انقطاع وعلى نمط واحد ووتيرة واحدة . ويكرر عبارته ويوجّهها الى الفيلسوف ، بلا كلال او ملل ، من الصباح ، حتى منتصف الليل ، حتى فقد الفيلسوف أعصابه وراح يصرخ ويستغيث .

وعندما حضر الوزير ، صرخ الفيلسوف : « والله وبالله وتالله وبشرفي وشرف جميع الأنبياء والفلاسفة والملوك والوزراء والتجار والمجانين . اني فهمت وتعلمت وآمنت وصدّقت ، برضاي واختياري ، وبدون إكراه او إغراء ، وبلا تحفّظ ، وحسب الاصول المرعيّة ان « سبعه مع سبعه ، عشرين » ولا يصح الا ان تكون كذلك ، مهما تغيّرت الظروف والأحوال .

فهزّ الوزير رأسه وقال : « صدق مَن قال ان التكرار بيصبّر الفيلسوف حمار ! » .



إن أنصفك دهرك : يوم لك ويوم عليك



حسن الذوق

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ .

فاستوى أبو زيدون في مجلسه ، ومدّ حديثاً عن الزعامات وأصحاب المقامات ؛ فقال ان الهوان وقلّة الأمان هما في مصاحبة ذوي السلطان . وضرب لابنه مثلاً ، قال :

ـ يُحكى ان أسداً وذئباً وثعلباً تشاركوا في طلب الرزق ، فاصطادوا جملاً وغزالاً وأرنب . فقال الأسد للذئب : « انت يا ، ابا سرحان » من أصحاب العقول . تحفظ الشرائع وتعرف الأصول فتَوَلّ تقسيم الأرزاق على الرفاق » .

وكان الذئب من رجال العلم والقانون : يحفظ على ظهر قلبه كتاب « كشف الظنون عما في المصارين والبطون » ، ويحيط بأسرار « رسالة الناهش والمنهوش » بين البهائم والوحوش » فاستوى على طرفه وقال :

— « بناءً على المادة الخامسة من « قانون التراضي » ، تأليف القاضي « أبو فطايس » ضبع العراضي ، وباسم المئات والألوف من سكّان الأوديــة والكهوف ، أحكم « بحصّة الأسد » للأسد : فيكون الجمل وهو كبير البهائم وأثمن الغنائم لمولانا الأسد ، ويكون الأرنب للثعلب ، ويبقى الغــزال لأخيكم الذئب » .

فزمجر الأسد وتناول الذئب بكفّه ورماه في الفضاء ، فوقع على شجرة قريبة وتعلّق « فوق » في أحد أغصانها .

ثم التفت الأسد الى الثعلب وقال له : « قُمْ انت ، يا « أبا الحُصين » واقسم « قسمة الحق » .

قال الثعلب : « قسمة الحق لا تكون بالمطالعات والمرافعات ، بل بمعرفة الواجبات وتقديم اللياقات لأصحاب الكرامات : وعلى هــذا الأساس يكون الجمل فطورك والغزال غداءك والأرنب عشاءَك » .

فانشرح خاطر الأسد ، وقال للثعلب : « ومَن علّمك حسن الذوق ؟ »

قال : « المعلّق فوق » .

فجرى جواب الثعلب قولاً مأثوراً .

اللي وَرّثو بَيّك ، إلَك ولخيّك

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ

واستوى أبو زيدون في مجلسه ومدّ حديثاً ، تكلّم فيه عن « قسمة الحق » وضرب لابنه مثلاً ، قال :

ـ يُحكى ان رجلاً مات عن ولدين ، فاستأثر الابن الأكبر بالميراث .

وبعد مدّة . حضر الابن الأصغر ، وقال : « انا اخوك ـ اذا صدقت الوالدة ـ والمثل يقول : « اللي ورّثو بيّك ، إلك ولخيّك » فهل تريد ان تقسم في ما بيني وبينك « قسمة الحق » فتعطيني ما هو لي وتستبقي ما هو لك » .

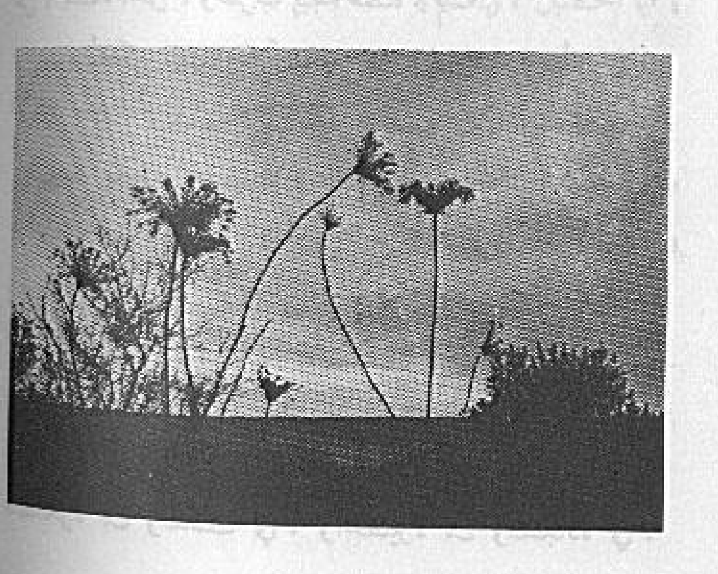
قال الابن الأكبر : « اني قد قسمت « قسمة الحق » ولا يكون لك أدنى فكر ، وانا انتظر مجيئك لتأخذ نصيبك ... فالطنجرة لك والدست لي ، والحصيرة لك والسجادة لي ،

(٨)

والحمار لك والفرس لي ، وجلّ السليخ لك وبستان الزيتون لي ... »

فقال الابن الأصغر : « كان أبونا ، على ما أذكر ، يقتني سيفاً قديماً ، فاذا سمحت لي بالسيف ، باركت لك انا بكل ما تبقى من الميراث » .

قال الابن الأكبر : « بكل طيبة خاطر » ، وطلب من زوجته ان تأتي بالسيف وتعطيه الى أخيه ، الذي انتضى السيف وضرب به عنق أخيه الأكبر ، فقسم رأسه عن جسده ، وقال : « هكذا تكون قسمة الحق ! »



الله ينجّينا مِن الأعْظم



وراح نهارٌ وجاء مساءٌ

واستوى أبو زيدون في مجلسه ومدّ حديثاً . قال ان الذين صنفوا الأمثـال ، جعلوا لكل مناسبة مثل او قول مأثور . وضرب لابنه مثلاً . قال :

ـ يُحكى ان احد أمراء لبنان . أراد ان يحتفل بعيد بلوغه السبعين من عمره ، وامر ان تُفتح أبوابه وان يدعى اليه اعوانه واصحابه .

وتوافد وجهاء البلاد للتهنئة والدعاء ، بطول البقاء . وتبارى الشعراء بقصائد عصماء . في المديح والثناء . وأقبل رجـال الدين ، بالضراعات والابتهالات ان يحفظ الله الأمير ، ويطيل عمره عشرات السنين .

ودخل . بالتالي ، شيخ قادم من إحدى قرى الجبل ،

وتقدم وقال : « طال عمر الأمير ، ما دام الحيا (الحياة) يليق » .

فقال الأمير : « كفى !... هذا فصل الخطاب » .

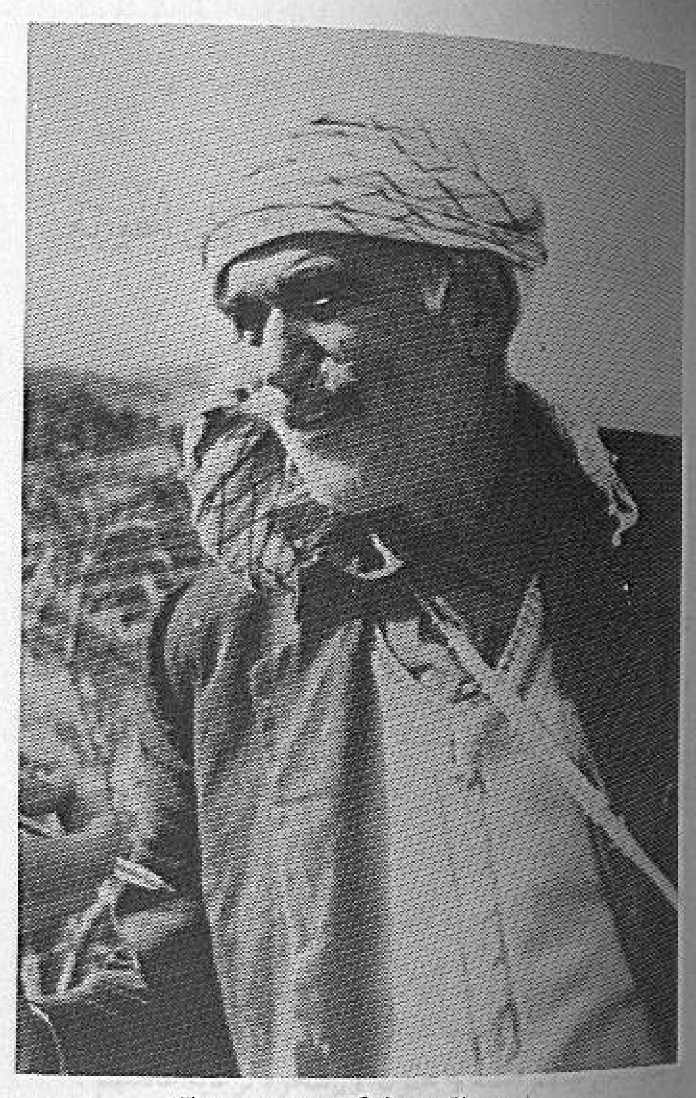
فالحياة اللائقة ، او اللياقة ، هي كمال العقل ، اما « فقدان اللياقة » فهو « الخرَف » الذي ينتاب بعض الشيوخ .

ثم ضرب ابو زيدون ، لابنه مثلاً آخر ، قال :

– يُحكى ان رجلاً من أصحاب الرأي ، كان كلما سمع رجلاً يتحدّث عن مصيبة ، مهما كانت مؤلمة ، يقول « الله ينجّينا من الأعظم ! »

فسألوه أخيراً : « وما هو الأعظم ؟ »

قال : « الأعظم هو ان يفقد الرجل عقله ، فيفقد لياقته ويخسر كرامته ، ولا توجد مصيبة أعظم من هذه المصيبة » .



داري حالك ؛ ولو كان « بوزيد » خالك



ما يسلك على الرعيّة ، لا يسلك على الخوريّة

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ

فاستوى أبو زيدون في مجلسه ، ومدّ حديثاً عن السياسة ، قال : ان السياسة هي فن قولبة الحقائق . حسب اقتضاء المصالح ولذلك لا بدّ من التكاذب والمخادعة في غالب الأحيان .

بيد ان مزالق السيـــاسة أكثر من ان تُحصى ، لأنك لا تستطيع ان تكذب على مَن هو أكذب منك ، فينكشف أمرك ويُفتشى سرّك .

وضرب ابو زيدون لابنه مثلاً ، قال :

– « مات خوري الرعيّة ، في إحدى القرى . وترمّلت كنيسته : فاجتمع أصحاب الرأي من رجال القرية ، واختاروا رجلاً من بينهم اسمه « مختول » رشحوه لرعاية طائفتهم .

والى ان تمّت الموافقة ، من قِبَل المراجع المختصّة ، كان مختول قد أرسل لحيته وأحضر قلنسوته وهيّأ جبّته وتعلّم واجبــاته وتعرّف على مسؤولياته ، ولم يلبث ان صار اسمه « أبونا مخايل » .

لكن « ابونا مخايل » لم تكن عنده كفاءَة سلفه الخوري سمعان وحنكته في اجتذاب المؤمنين الى ممارسة شعائر الدين .

واستلهم : بالتالي ، رأي شفيعه القدّيس ميخائيل ، وهبط الى بيروت ، واشترى لوحة كبيرة تُمثّل القديس ميخائيل في أبهى حلل المجد ، جاء بها ووضعها في إحدى زوايا الكنيسة . واختبأ وراءَها ؛ ثم غيّر لهجتــه وانتحلَ شخصيّة القديس ميخائيل وراح يتكلم بلسانه ، فيُسمّي النـــاس بأسمائهم : ويأمرهم بالخير وينهاهم عن الشرّ .

لكن يبـدو ان المحترم خشي ان يكشف عن هذا السرّ للخورية ، لأن المثل يقول : « المرأة ، سرّها في جنانها ، وسرّ زوجها على لسانها : فإن فطنت الى سرّها خبّأته ، وان فطنت الى سرّ زوجها كشفته » .

وجاء من يخبر الخورية بعجائب صورة القديس ميخائيل فهرعت بدورها ، لترى ، وتسمع ، وتتحقق الأمر بنفسها .

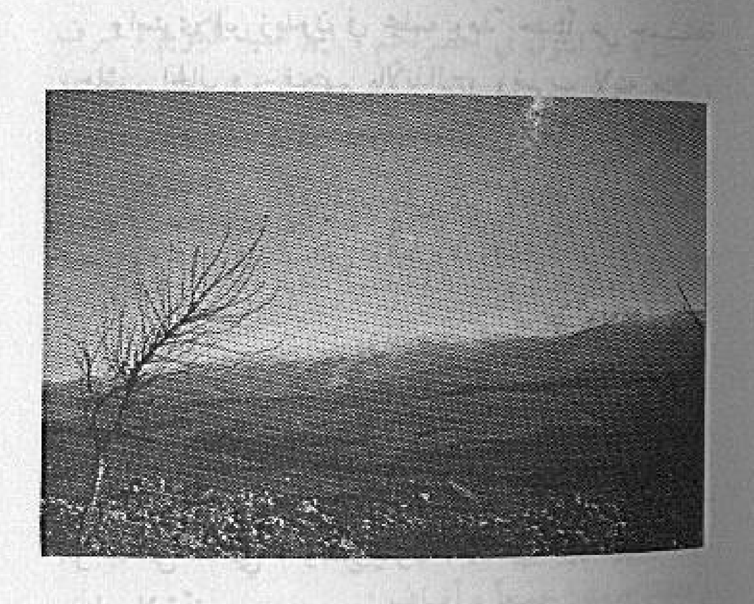
فناداها القديس ميخائيل باسمها وقال لها :

– « انتِ هي الحوريّة ، والحوريّة يجب ان تكون راضية مرضيّة ، فلا تقاطعي « المحترم » اذا تكلّم . لأن رضانا من رضاه والويل لمن عصاه ! ».

فاقتربت الحورية ، من صورة القديس ميخائيل ، حتى لامست شفتاها اذن القديس ، وقالت له :

– « يا مختول ... اللي بيسلك عَ الرعيّه ، ما بيسلك عَ الحوريّه ! »

وجرت عبارة الحوريّة مثلاً على السنة رجال السياسة .



جَحْش القاضي مابيآذي

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ

واستوى ابو زيدون في مجلسه ومدّ حديثاً عن جماعة « ماشي الحال » ، فنعتهم بالأنذال ، وضرب لابنه مثلاً . قال :

– كان لأحد القضاة جحش كرّ يُطلقه على سجيته ، فيسرح ويمرح في البساتين والكروم والحقول ، ويعبث فيها فساداً .

وبدأ التذمّر وكثر الهمس والغمز ، ثم عمّ الاستياء ، وراح الناس يتشاكون همومهم في ما بينهم ، ولا يتجاسر أحد منهم على اعلان الاحتجاج ، فالقاضي هو القاضي ؛ والجحش هو جحش القاضي ، والمثل يقول : « كلب المير مير » ، ولا حول ولا قوّة ...

وعندما بلغت الحالة حداً لا يطـــاق ، تنادى جماعة من أصحاب الأملاك وقالوا الى متى هذا السكوت ، عن تصرّفات الجحش ، يجب ان نعرض الأمر على القاضي ، مهما كانت النتيجة .

وشكّلوا وفداً من كبار القوم ، وطلبوا مقابلة القاضي ، ومثلوا بين يديه .

وكان من جملة أعضاء الوفد شيخ تعوّد مقابلة الحكّام ، وتمرّس بولوج أبواب الكلام ، فحيّا وقال :

– « ان المثول في حضرتكم ، ايها السيد الكريم ، شرف عظيم ، ونحن انما جئنا الآن ، نطلب رضاكم ونسأل خاطركم ونعرض لديكم موضوعاً يهمّنا ويهمّكم » .

وتريّث الشيخ قليلاً ، على أمل ان يتناول حبل الكلام أحد أعضاء الوفد ، وعندما أحجموا ، تابع كلامه . فقال :

– « بما أنكم ، يا فضيلة القاضي ، مسؤولون عن أمن البلاد وراحة العباد ، لذلك سيعرض لكم الآن هؤلاء الرفاق ، ما جئنا من أجله » .

وتوقّف الشيخ قليلاً ، ليفسح في المجال ، لمن أراد الكلام . وعندما صمتوا جميعاً ، أضاف :

– « اننا جئنا نلفت نظر فضيلتكم الى موضوع الجحش ، لأن الجحش لا يجوز ان يبقى على هذه الحالة » .

والتفت الشيخ الى مَن كان حوله وقال :

– « تفضّلوا يا إخوان وقدّموا لفضيلته ما اتفقنا عليه بشأن الجحش » .

فوجموا جميعاً .

فاستطرد الشيخ :

– « وقد لاحظنا ، يا فضيلة القاضي ، ان جحشكم الميمون يقوم بألعاب بهلوانيّة جريئة ويتمطّى بحركات بريئة تُبهج النواظر وتشرح الخواطر ، ولا سيما متى فنعص وشهق ونهق وشرد بين الكروم والبساتين ؛ فتجري وراءه الأنظار ... وتقلق الأفكار ... »

وسكت الشيخ قليلاً ، لعل أحد الحاضرين يتجرأ على متابعة الكـــلام .

فقال القاضي : « ولماذا تقلق الأفكار؟ »

فاستدرك الشيخ ، عندئذٍ ، وقال :

– « خوفاً من ان يُصيب الجحش اي مكروه ، لا سمح الله » .

وأضاف :

- « والذي اتفقت عليه كلمتنا ، بالتالي ، هو ان جحشكم المذكور - خلافاً لسائر أبناء الحمير - لا يصدر عنه اي أذى ، مهما كرّ وفرّ بين الحدائق والبيادر ، حتى قال الناس : « جحش الآضي (القاضي) ما بيآذي » .

ولذلك جئنا الآن نقترح على فضيلتكم ان تجلبوا جحشاً آخر ، يكون رفيقاً مؤنساً لجحشكم هذا ، فيعمّ بذلك سرورنا ويزداد حبورنا ، وقد قررنا ان نتبرّع لكم بثمن الجحش الجديد » .

وفكّ الرجل كَمَرَه ، وتناول منه ما تيسّر وضعه في طربوشه ، وحمله وطاف به على أعضاء الوفد ، فدفع كل واحد منهم ما كان معه من النقود .

وعندما خرجوا ، سألوا الشيخ : « ومـاذا نقول الآن لزوجاتنا وأولادنا ؟ »

قال : « قولوا لهم : « جحش الآضي (القاضي) ما بيآذي ! »

فجرت عبارته قولاً مأثوراً .

اطلع عنها يا حضرة الشيخ

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ .

فاستوى أبو زيدون في مجلسه ومدّ حديثاً عن « علم السلوك » و « أدب المجالسة » . قال ان التهذيب زينة الرجل ، وخفّة الدم تستر خفّة العقل . وقديماً قالت الحكماء ان « حلاوة اللسان ، تستعبد الانسان ، كالإحسان » ، و « مَن رقّت لياقته راقت صداقته » ، فاذا حلا كلامك علا مقامك .

وضرب أبو زيدون ، لابنه ، مثلاً : قال :

– يُحكى أن شيخاً من مشايخ احدى القرى ، كان عنده ثور أراد ان يبيعه ، فتقدّم رجل لشرائه .

لكن الرجل أراد ، أولاً ، ان يتثبّت من طواعية الثور ، وهذا غير ممكن الا بالحراثة عليه ، واذ لم يكن هناك ثور آخر يربطه الرجل ، تحت النير ، الى جانب ثور الشيخ ، لذلك تمنى

على الشيخ ان يقبل بوضع النير على رقبته ، من جهة ، وعلى رقبة ثوره من الجهة الثانيـــة : فيحرث الرجل عليهما ثلمين - روحه رجعه - ليتحقق من طواعية الثور على الفلاحة .

وهكذا صار .

وباع الشيخ ثوره الى الرجل وقبض ثمنه ورجع الى قريته وأخبر زوجته بما جرى له ؛ فصاحت : « هذه إهانة ، أكبر إهـــانة ! »

قال : « من أيمتى صرتي تفهمي بالإهانات والمقامات ، الزلمي احترمني وحفظ مقامي ... كان يناديني وقت الفلاحه : « إطلع عنها » يا حضرة الشيخ » ! إنزل عنهـــا يا « حضرة الشيخ ! » .

فصار جواب الشيخ من الأقوال المأثورة .

اللي مَاعندُو كبير ، مَالو تدْبير



وراح نهارٌ وجاء مساءٌ .

واستوى أبو زيدون في مجلسه ، ومدّ حديثاً قال :

« من صفات الله تعالى انه عليم خبير ؛ لذلك وجب احترام العلمـــاء وأصحاب الخبرة ، ولا سيّما الشيوخ الذين اختبروا الحياة وعرفوا بعض أسرارها ، ولذلك قال المثل : « اللي ما عندو كبير ، مالو تدبير » .

ثم ضرب أبو زيدون مثلاً لابنه ، قال :

– يُحكى ان رجلاً كان عنده جمل هو مورد رزقه ومعيل عـــائلته .

ومع ان الجمل حيوان وديع مطيع ، في غالب الأحيان ، لكنه اذا هاج ، فكالبحر العجاج .

وحدث ان هاج جملنا هـذا ، وشرد وابتعد ، وراح صاحبه يجري لاهثاً وراءه ، من مكان الى مكان ، وهو يلعن ويشتم ويتوعد .

وفي فورة من الغضب أقسم الرجل يميناً معظّمة ان يبيع الجمل بـ « مصرية » ، اي بليرة مصرية ، وهي العملة التي درجت في بلادنا ، في عهد ابراهيم باشا المصري .

لكن ما لبث الرجل ان قبض على جمله ، وراحت السكرة وجاءت الفكرة - كما يقول المثل - فهل يحنث بيمينه ام يبيع الجمل بمصرية ، مع ان ثمنه لا يقل عن مئة مصرية ؟ وقال : « لي معه عِشرة عمر وصحبة دهر ، فكيف أتخلى عنه بهذه السهولة ! »

ثم نظر الرجل الى جمله وراح يعاتبه ، قال : « عهدتك ، يا « ابوناهض » صديقاً : مطيعاً وديعاً ، ولو حدث أن أسأت اليك يوماً ، فانك كنت تحفظ للصلح مطرحاً ، فلا تقطع شاحاتك ، ولا تُرغمني على الهرولة وراءك ، فتشمت بي زوجتي ، ويزهد بي ابنا قريتي ، فما الذي غيّر مزاياك ، على حُسن سجاياك ، وأنت من أوادم البهائم ، ولا تعاتب ولا تجادل ولا تخاصم » .

فأشرأبّ الجمل واشمخرّ ودمدم وهردب واسبطرّ، وقـــال :

– أنت تعلم مدى صبري على حمل الأثقال ، وجلدي على اقتحام الأهوال ، واحتمال الجوع والعطش والتعب في أسوأ الأحوال... ولذلك سمّاني الناس « ابو كاظم » وكانت كل قناعتي في حفظ كرامتي .

لكن الذي حدث أمس ، أنك اشتريت جحشاً كرّاً ابن أتان ، لا هو مثلي ابن عشيرة ولا صاحب رأي وبصيرة ، والمثل يقول : « هداوة البال في صحبة الجمال : والبهدلة والتعثير في عشرة الحمير » .

ثم جررتني في هذا الصباح وربطت رسني في « حياصة » الجحش ، الذي مشى أمامي ، آخذاً بزمامي ... فكيف يجوز ان يمشي الجحش قدامي وهو ليس في مقامي ، فيشمت بي أخصامي ؟ »

فقام الرجل الى جمله وعانقه ، وقال : « لعنة الله عـلى الحمير ... وعلى الذين هم في مصاف الحمير » . واعتذر عما صدر .

ثم عاد الرجل فتذكّر انه أقسم يميناً معظّمة ان يبيع الجمل بمصريّة ، فبكى وناح : « آه ، واجملاه ! »

وحضر إليه بعض الإخوان والجيران وراحوا يتشاورون ويتباصرون لعلهم يهتدون الى مخرج يُخرج الرجل من يمينه المعظّمة .

وكان عند صاحب الجمل ، عمّ شيخ طاعن في السنّ غربلته الأيام وعجنته التجارب ، فحضر أخيراً ، وقال :

ـ « لماذا هذا الارتباك ؛ علّق هِرّاً في ذَنَب الجمل وانزل بهما الى سوق المدينة ، ونادِ بين الناس : « الجمل بمصريّه ، والبسين بميّة ، والبيع سويّة ! »

ففعل الرجل كما أشار عليه عمّه الشيخ ، فلم يتقدّم أحد لشراء الجمل بسبب البسين المعلّق في ذَنَبه .

وهكذا صار الرجل في حلّ من يمينه .

إذبح بِسّك، لَيْلَةَ عرسَك



وراح نهارٌ وجاء مساءٌ .

فاستوى أبو زيدون في مجلسه ، ومدّ حديثاً عن الزواج :
قال ان الزواج نصفه تصيب ونصفه تسبيب ، وفي كلتا الحالتين ،
اذا أراد الزوج ان يضمن طاعة زوجته مدى الحياة ، فعليه ان
« يأكل وهرتها » منذ وصولها الى منزله ، وضرب له مثلاً قال :

ـ يُحكى ان رجلاً استضعفته زوجته وأمعنت في مقاهرته ،
فلا تسمع له كلاماً ، ولا ترعى له زماماً .

وحدث انه زار ، في أحد الأيام ، صديقاً له ، ولاحظ
ان زوجة صديقه هذا وديعة ومطيعة ، فقال له : « اني أغبطك
يا صديقي على سعادتك ، فلا شك ان الحظ حالفك ، فحظيت
بهذه الزوجة الفاضلة » .

قال الصديق : « لا ، لا ، ان الحظ لا يغيّر شيئاً من أخلاق
المرأة ، لأن كل امرأة من طبعهـــا المماحكة والمجادلة ، ولا
يردعها سوى خوفها من بطش زوجها » .

وأضاف الصديق : « واني لا أكتمك ، يا أخي ، اني
كنت قبل زواجي ، أقتني هرّاً عوّدتُه ان ينام في حضني .

وحدث ليلة عرسي ، وبينما كنت أجلس قرب عروسي ، ان تقدّم « البِس » — اي : « الهرّ » ، بلغة قريتنا — وجلس في حضني ؛ فتصنّعت الغضب وقبضت على البسّ وذبحته ورميته أمام عروسي ؛ التي ارتعبت وقالت في نفسها ؛ ربما ذبحني زوجي ، في إحدى الليالي ، كما ذبح هذا البسّ ، اذا انــا أغضبته او عصيت له أمراً ، وصارت من تلك الساعة ، وديعة مطيعة كما تراها الآن » .

فقال الرجل في نفسه ، هذا : إذن ، ما يجب ان أفعله لكي يدبّ الرعب في قلب زوجتي ، فتقف عند حدودها .

ورجع الى بيته ، وكان عنده بسّ مدلّل ، قبض عليه وذبحه ورماه أمام زوجته ، فصاحت به : « يا نذل ، يا جبان ، تتمرجل على البسّ ! لو كنت رجلاً لتمرجلت على رجــل مثلك ! »

وانتزعت المرأة السكّينَ من يد زوجها وقالت له : « إخرج من أمام وجهي وإلاّ ألحقتك بهذا الحيوان المسكين ! »

وعاد الرجل تواً ، الى صديقه ، وروى ما جرى له مع زوجته .

فهزّ الصديق رأسه وقال : « فات الأوان ... كان لازم تذبح بِسّك ليلة عرسك ! »

فصارت هذه العبارة من الأقوال المأثورة .

خلاصة جميع الخلاصات

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ .

فاستوى أبو زيدون ، في مجلسه ، ومدّ حديثاً عن الدنيا الثانية و « الفانية » ، فقال ان كل ما قيل ويقال ، تكهّنات في المصير والمآل . وضرب لابنه مثلاً ، قال :

– يُحكى ان ملكاً تقدّمت به الأيام ، وانتابته الهواجس والأوهام ، وفي إحدى الليالي فكّر ان الموت لا بدّ منه ، فماذا ، اذن ، بعد الموت ؟

وطال سهاده وطار رقاده .

وفي اليوم التالي ، استدعى اليه العرّافين ، وبعض الشيوخ العارفين والفلاسفة والعلماء ورجال الدين ، وأمرهم ان يأتوه بالجواب الشافي الكافي ، عما بعد الموت ، فانصرف هؤلاء الى جمع المعلومات وتقصّي الحقائق .

وكان الملك ، كلما سأل عن النتيجة ، قالوا : « ما زال الموضوع قيد الدرس » . حتى مرّت خمس سنوات ، جاؤوه بعدها بحمل حمار من المخطوطات والمطبوعات ، قالوا : « هذه هي خلاصة الآراء في موضوع ما بعد الموت . »

فغضب الملك وقال : « ومتى كان بالامكان قراءة حمل حمار من المخطوطات والمطبوعات ... اذا كانت هـذه هي « الخلاصة » ، فهاتوا لي ، اذن ، « خلاصة الخلاصة » ، لعلي أستطيع ان أقرأها قبل ان أموت » .

وبعد سنتين رجعوا ومعهم عشرة مجلّدات ، قالوا انها « خلاصة الخلاصة » ، فثار الملك في وجوههم وعنّفهم ، وطلب منهم ان يأتوه بـ« خلاصة خلاصة الخلاصة » .

وبعد أكثر من سنة ، رجعوا ومعهم مجلد واحد من ألف صفحة .

فشتمهم الملك وطردهم وأمرهم ان يـأتوه ، في أقرب وقت ممكن « بخلاصة جميع الخلاصات » .

وذهب هؤلاء ولم يرجعوا .

وكان الملك قـد بلغ سن الشيخوخة ، فتراخت ركبتاه واختلجت رئتاه وغارت عيناه وشحّ سمعه وبصره وزاد تفكيره

في ما بعد الموت ، وأمر بالتالي رجـاله ان يعتقلوا العرّافين والعارفين من فلاسفة ورجال دين ويطرحوهم في السجن ، الى ان يتّفقوا على رأي واحد موحّد مختصر مفيد في موضوع ما بعد الموت .

وطال اعتقال هؤلاء ، بدون جدوى .

وطال انتظار الملك ، حتى خشي ان يواجه الموت قبل ان يعرف شيئاً عما بعد الموت .

وكان بين أفراد الحاشيـــة رجل قرقحته الأيام ونهنهته التجارب ؛ فدخل على الملك واستأذن وقال :

— « اني أسألك ، يا سيّدي الملك ، هل تعرف شيئاً عما قبل الحيـــاة ؟ »

ففكر الملك قليلاً ، وأجاب : « كلا »

فقال الرجل : « اذا كنت لا تعرف شيئاً عما قبل الحياة ، فكيف يمكن ان تعرف شيئاً عما بعد الموت . لأن ما تجهـــل بدايته ، تجهل نهايته ... هذه هي خلاصة جميع الخلاصات » .

الجَاهِل لا يتعَلَّم إلاّ من كيسه

❖

وراح نهارٌ وجاء مساءٌ .

واستوى أبو زيدون في مجلسه ومَدّ حديثاً ، فتكلم عن بهارات الكلام ، قال ان بهارات الكلام مثل بهارات الطعام ، تزيد الشهيّة على الاستماع ، والقابليّة على الفهم ، فاذا مددت حديثاً لا تبخل بهذه البهارات من أجل تطييب مذاق العبارات وتضميخ رائحة الكلمات .

وضرب أبو زيدون لابنه ، مثلاً ، عن بعض الاصطلاحات لبعض المناسبات ، مثل :

ــ خزاة العين عنها ... مثل البدر .

ــ زلمي ... بلا زغره بحضرتك ... من روس الأوادم .

ــ صرمايه ... حشاة قدرك ... مثل المرايه .

ــ سنة الجراد ... تنذكر ما تنعاد .

– جدّي ... تورث عمرو .

– طويل وغليظ ... بلا معنى .

– العمر الطويل ... قدّيش عمرك ؟.

– يا معوّد ... إيدي تحت زنارك .

– لو بدها تشتي ، غيّمت .

– طالع الشعر على لساني .

– ما بيضحك لرغيف السخن .

– حكاك على بيت الجرب .

– اللي تحت باطو مسلّه ، بتنغزو .

– عمرك أطول من عمري .

– ما بيصح غير الصحيح .

– رزق الخسيس ، لبليس .

– القضيه ؛ فيها وما فيها .

– اول دخولو ، شمعه عَ طولو .

– ضربني وبكى ، وسبقني واشتكى .

– العتبه نص الطريق .

– على عينك يا تاجر !

– العين بصيره واليد قصيره .

وغير ذلك من اصطلاحات الكلام .

اللي ما بيجي معك ، تاعَ معُو !

❖

ثم أعطى أبو زيدون إبنه زيدون ، كيساً فيه ما تيسّر من النقود ، وقال :

ــ لقد اعطيتك ، يا ابني ، كل ما عندي من أدب وعلم وحكمة ، فان مشيت الآن ؛ لا تعثّر رجلك ؛ وان تكلّمت لا يزلّ لسانك ... زادك في جرابك وسلاحك في يدك ، فاخرج الى اصطياد فرص النجاح » .

فطلب زيدون رضا أبيه وأمّه وسافر على بركات الله .

الا انه ما لبث ان رجع ، بعد يومين ، مكسوفاً منكسر الخاطر ؛ قال :

ــ ذهبت الى بيروت ، ونزلت في أحد خانات المدينة ، وتعرّفت هناك على جماعة من الشبّان في مثل عمري راحوا يتحدّثون عن مباهج المدينة وأماكن اللهو فيهـــا ، فقالوا :

سنمضي الليلة . الى أحد الملاهي ، حيث يوجد راح وانشراح ،
قلت : « لا بل يوجد فيها عار واستهتار ! »

وبقيتُ في نقاش وجدال ، مع هؤلاء الرفاق – ولكن بدون جدوى – حتى أقبل المساء . فخرجوا فخرجتُ معهم . وسلكوا زاروباً ضيقاً فمشيت معهم ، وولجوا باباً مولوجاً فولجت معهم ، وشربوا وعربدوا فانسجمت معهم ، وتصرفوا تصرفاً غير لائق ، فتصرّفت معهم . وقبل ان تلوح تباشير الصباح راحت السكرة وجاءت الفكرة ، فانتبهت الى خطأي واستنكرت وجودي في ذلك المكان ، ولكن بعد فوات الأوان .

وتنهّد زيدون وأضاف :

– وعندما خرجت اكتشفت ان كيس نقودي طار ، ولم أكن قد دفعت كراء الخان . فرجعت خائباً ...

فصاح أبو زيدون ..

– ولماذا ذهبت معهم ، طالما انك لم تكن موافقاً على رأيهم ؟

قـــال زيدون :

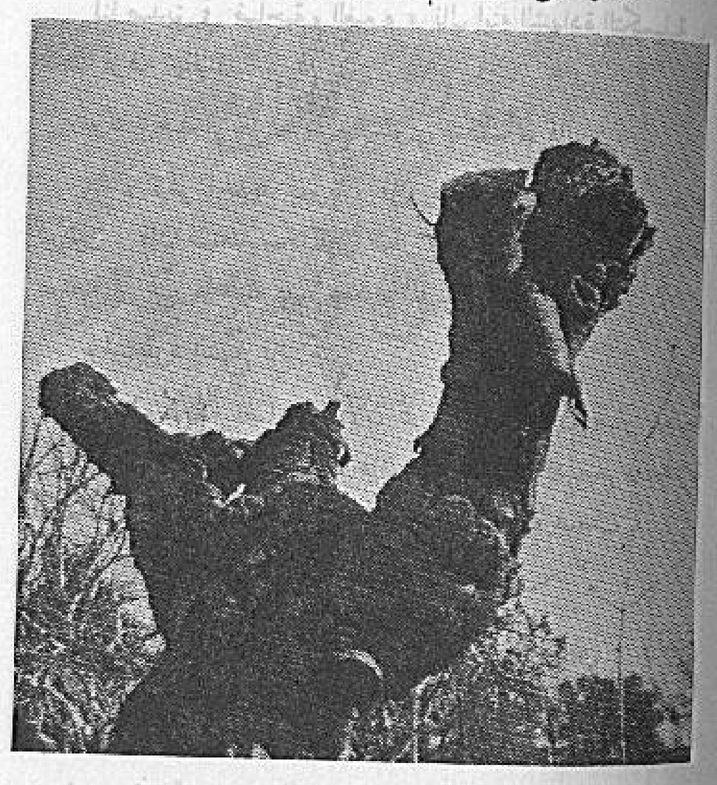
– راجعت كل ما علّمتنيه من الأمثال ، لأستعين بما ينفعني منها في هذه الحال ، فلم يخطر في بالي سوى المثل القائل :

– « الي ما بيجي معك ، تاع معوا ! » ... فتمثلت بهذا المثل . وامتثلت لرأي الجماعة ...

فقال ابو زيدون :

ـ يا خيبة أملي وضياع تعبي فيك ... لعلّك لم تحفظ من جميع الحِكَم والنصائح والأمثال التي سمعتَها وتعلّمتَها مني ، غير هذا المثل ... إسمع يا أبني ... يوجد ألف مثل ومثل ، لكن يوجد مثل واحد يُغني عن ألف مثل . هو :

ـ « الجاهل ما يتعلّم الا من كيسو » .



ومين بَيعرف شو بيصِير ؟

❖

لنا صديق في ضاحية « الغبيره » نال ابنه الشهادة التكميلية ، فجئنا نزفّ له تهانينا .

وكان عند الرجل : شيخ يستوي متكلماً ، قال :

– « كيلو الحديد بليرة ، فإن صنعته مسامير صار سعره ليرتين ، فإن صنعته سكاكين صار سعره خمس ليرات ، فإن صنعته براغي ساعات صار سعره ألف ليرة » .

واستطرد الشيخ قائلاً :

– « وهكذا تضاعف الآن ثمن إبنك ، فإن صار معلماً زاد سعره ثلاثـــة أضعاف ، فإن صار طبيباً زاد سعره عشرة أضعاف ، فإن صار فقيهاً او عالماً زاد سعره مئة ضعف » .

فتنهّد الرجل ، وقال :

– « لكي يصير ابني معلماً يجب ان أبيع بيتي ، ولكي يصير طبيباً يجب ان أبيع كل ما أملك ، وقبل ان يصير فقيهاً او عالماً ، أكون انا قد أصبحت بين يدي « ناكر ونكير » : ومين بيعرف شو بيصير ؟ » .

القِسمُ الرّابع

اقعُد أعوَج وَاحكي جَالِس

ومين بيعرف شو بيصير ؟

❊

لما حدثني في ناحية [illegible] الغيرة [illegible] الشهادة [illegible]
[illegible]

[illegible]

وكاد [illegible] الحكماء !!

— وكيلو الحديد [illegible]

ثم [illegible] صنعته [illegible]

[illegible]

واستطرد الشيخ قائلاً :

— وهكذا تضاعف الآن ثمن الحديد [illegible]
زاد سعره ثلاثة أضعاف ، وإن صار طبيباً زاد [illegible]
أضعافاً ، وإن صار طبيباً أو عالماً زاد سعره [illegible]

شهيد الوطن [illegible] وقال :

— ولكن [illegible] يصير
يصير طبيباً [illegible] كل [illegible]
أو عالماً ، أكون أنا قد أصبحت بين يدي [illegible]
ومين بيعرف شو بيصير ؟ !

مَن لا يَصْلح لِخدمَة زَوجته
لا يَصْلح لخِدمَة دَولته



جاورتُ موظفاً من زملائي ، كانت زوجته تتصل بـه هاتفياً ، فور وصوله ، في الصباح ، الى مكتبه : وتكلّفه بإحدى المهمّات . ثم تتصل به ثانيةً بعد نصف ساعة لتُملي عليه بعض المأموريّات .

ولا تلبث ، بعدئذٍ ، ان تراجع أفكارها ، بشأن بعض الطلبيّات ، فتتصل به مجدداً ، وتطلب منه ان يفعل كذا ولا يفعــل كذا .

وهكذا دواليكم ، من مكالمة إلى مكالمة ، حتى ينتهي دوام العمل ، فيراجع عندئذٍ ، أخونا هذا ، أوامر زوجته التي كتبها على علبة الدخان او سجّلها ، على عجل ، في حواشي بعض المعاملات ، ليعرف ما هو العاجل ، وما هو العاجل جداً من هذه المأموريات ويخرج .

فإذا توارى عنّا قال حاجب مكتبنا :

— « هذا حق" : لأن الذي لا يصلح لخدمة زوجته ، لا يصلح لخدمة دولته » .

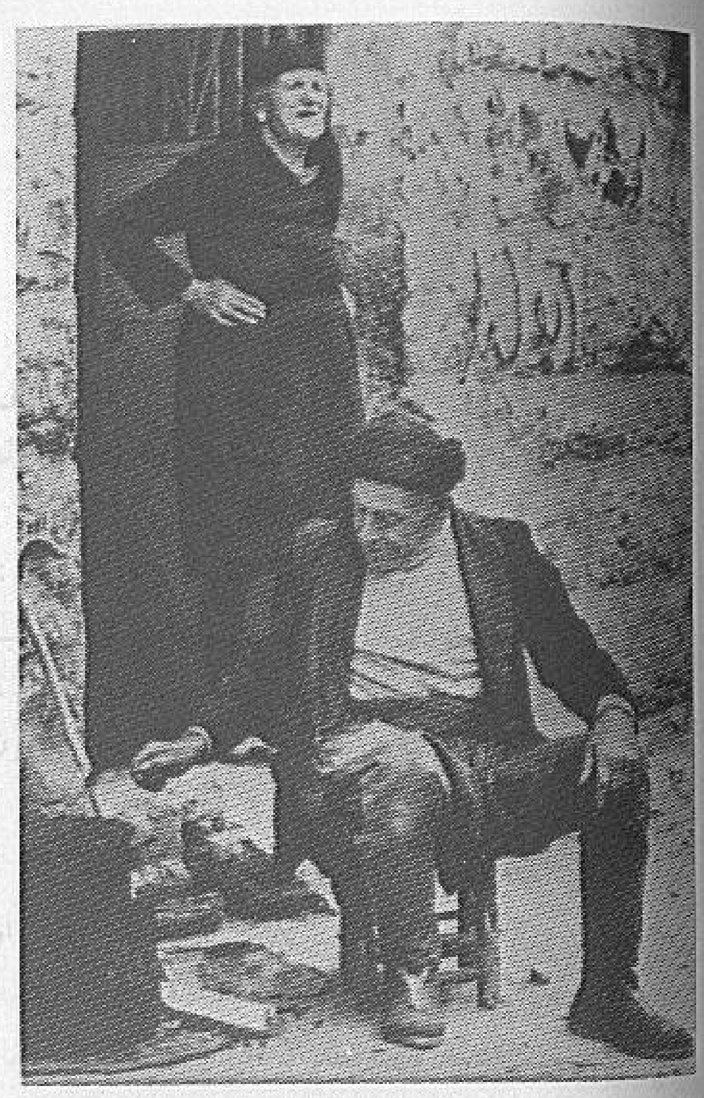
واذا سألناه عن أساس هذا القول المأثور : أجاب :

— « يُحكى ان والياً تركياً ، من الذين حكموا بلادنا ، كان عنده حاجب يتخلّف او يتأخّر ، أحياناً ، عن الحضور في المواعيد المحدّدة ، فإذا سأله الوالي عن سبب تأخره ، قال : « زوجتي كلّفتني بمهمّة » .

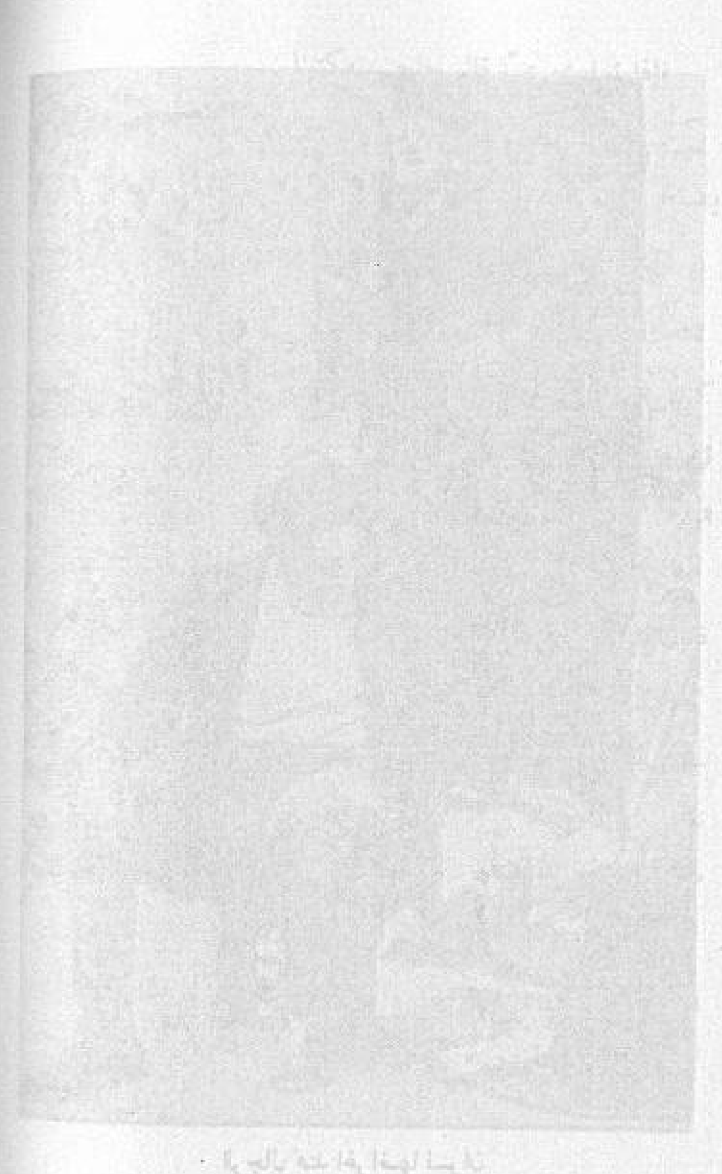
ولاحظ أحد وجهاء بيروت ، استياء الوالي من الحاجب فقال له :

— « إصرفه ، يا سيدي ، من خدمتك ، وأنا أحضر لك حاجباً آخر — لا خلفه ولا قدّامه — كانت عنده زوجتان ترهقانه بالمطالب : طلّق الواحدة ، فتأدّبت الثانية ، وارتاح من الأعباء العائلية » .

قال الوالي : « لا بلْ ان هذا الحاجب الموجود عندي الآن ، هو أفضل من ذاك ؛ لأن مَن لا يصلُح لخدمة زوجته لا يصلُح لخدمة دولته ! »



الرجال عند اغراضها نسوان



رَاح الشبعَان وإجَا الطفرَان

❖

يُحكى ان بعض وجهاء بيروت ، رفعوا شكوى الى « الباب العالي » في حقّ الوالي ، بتهمة الرشوة واستغلال الوظيفة .

فاستدعى الوالي ، موقّعي عريضة الشكوى ، وقال لهم :

– « كبّروا عقولكم ، فإن ما يدفعه الوالي الى « الباب العالي » لكي يصير والياً ، لا بدّ ان يعود ويجمعه من الأهالي ، وانا جمعت حتى الآن ما فيه الكفاية ، وشبعت : فهل تريدون ان يذهب الشبعان ويأتيكم الطفران » ؟

قيل ان وجهاء بيروت اقتنعوا وسحبوا الشكوى .

ومن ذلك الوقت صار اللبنانيون ، كلما تولّى حاكم او مسؤول جديد يقولون : « نرجو ان لا يصح فينا قول المثل :

– « راح الشبعان وإجا الطفران » .

هيا ليصا من أنت

❖

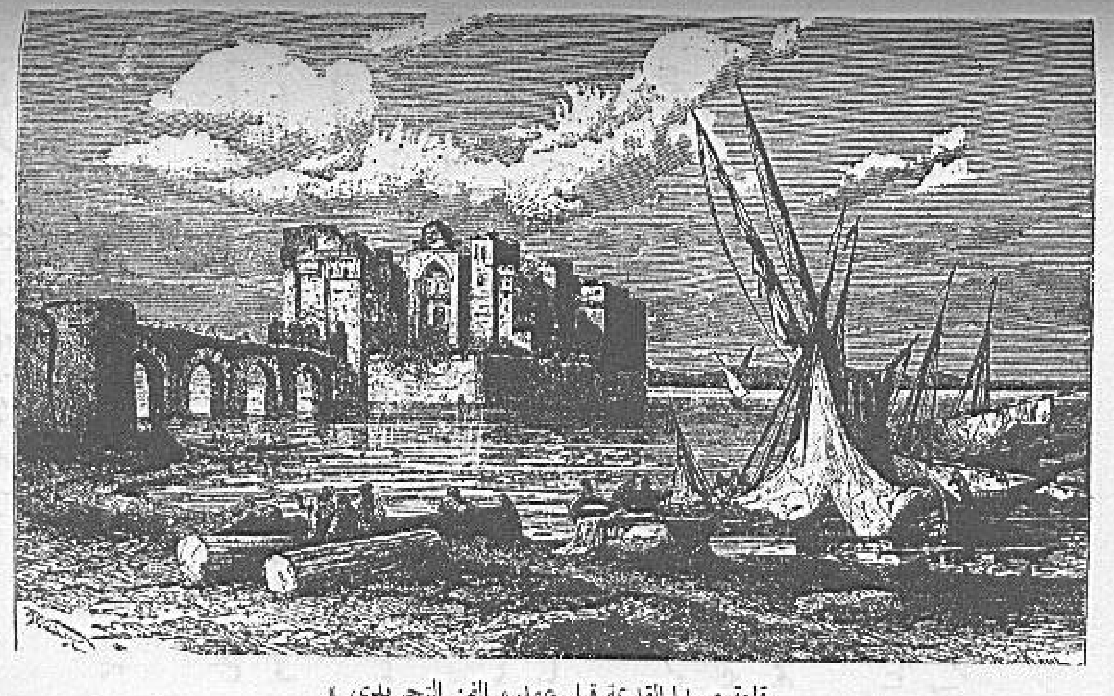
في مستديرة ساحة النجمة ، في مدينة صيدا ، كانت بلديتها في وقت سابق ، قد أنشأت مستراحاً عاماً يلجأ اليه الغربـاء وعابرو السبيل ، لقضاء حاجاتهم .

فخطر في بال وزارة السياحة ، منذ ثماني سنوات تقريباً ، ان تهتم بتجميل مدينة صيدا ، وقررت بموافقة البلدية الغـاء المستراح المذكور ، وإقامـة نصب فنّي جميل ، في وسط المستديرة ، يكون متناسباً مع تاريخ مدينة صيدا .

ووقع الاختيار على فنّانة معروفة قامت بوضع تصاميم النصب المطلوب ، لقاء أجر مقداره أربعون الف ليرة لبنانية .

وعندما أُزيح الستار عن النصب ، تجمّع الصيداويون حوله وتساءلوا ماذا يعني ؟

قال قائل : انه قبر بدون باب .



قلعة صيدا القديمة قبل عهد « الفن التجريدي »



وقال آخر ، لا بلْ انه سفينة بدون شراع .

وتكهّن آخرون بأشياء أُخرى .

وحكمت الأكثرية ، أخيراً أنه مجموعة من الحجارة لا معنى لها .

وحمل الصيداويون على مجلسهم البلدي الذي وافق على تشويه مدخل مدينتهم بهذا النصب الذي لا علاقة له بحياتهم ومفاهيمهم .

قيل ، يومئذٍ ، ان المجلس البلدي ، استدعى السيدة المصمّمة ، وسألها عما يرمز النصب .

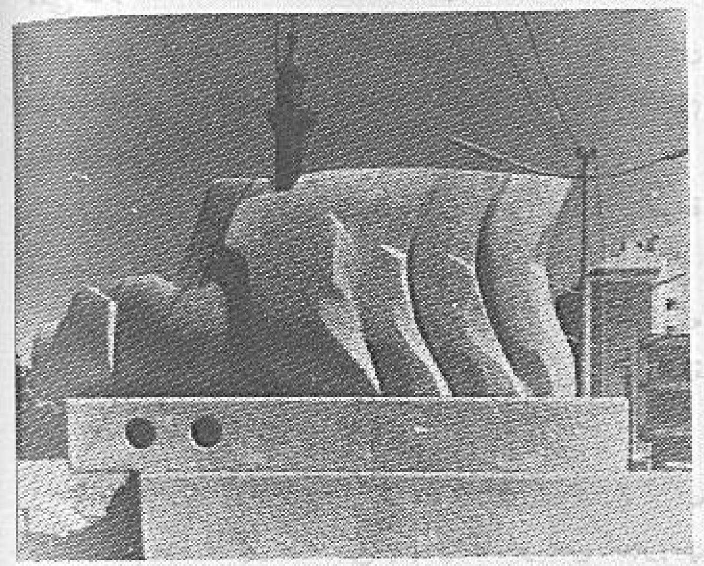
فقالت انه ينتمي الى مدرسة الفن التجريدي : الذي نفهمه بالإحساس ، لا بالمنطق ، والذي يحتاج الناس الى ثلاثين سنة حتى يفهموه تمام الفهم .

قالوا : ولكننا لسنا مستعدّين ان نتحمّل شتائم الناس وانتقاداتهم مدة ثلاثين سنة حتى يفهموا ما هو الفن التجريدي فإمّا ان تتلطفوا ، انتم أصحاب مذاهب الفن الحديث ، وتقدّموا الينا فنّاً نفهم ماذا يعني ، أو خذوا أنصابكم واذهبوا عنا .

وبعد الأخذ والردّ والهزل والجدّ ، انتصرت مفاهيم صيدا القديمة : في معركتها مع الفن التجريدي الحديث ، وتمّ أخيراً « تقليع » حجارة النصب ووضعها في مكان آخر .

* * *

هذا نصف المأساة ، اما نصفها الثاني ، فهو ان الفنّانة ، واضعة التصميم ، كانت قد أطلقت على النصب اسماً عجيباً غريباً ... سمّته « هياليصا » ، وهذا ما زاد في الطين بلّة ، لأن الاسم كان أغرب من المسمى .



تمثال « هياليصا » قبل نقله من ساحة النجمة

لكن أهالي صيدا ، عندما ارتاحوا من مشاهدة النصب ، ارتاحوا كذلك من اسمه : في حين لم يهدأ بال بعض الإخوان المتتبّعين آثار أقدام الكنعانيين والفينيقيين والحثّيين والسلوقيين والسومريين والأموريين والفرزيين ، وسائر أجدادنا الخالدين ،

اذ لعلّ « هياليصا » هذه كانت ، في يوم من الأيام ، إحدى نابغات تاريخنا الدفين .

وكان بين الذين شغلتهم هذه القضيّة ، في ذلك الحين ، رجل كريم ، ابن حسب ونسب ، كان يبحث عن اسم جديد أنيق عربق لابنته ، فسمّاها « هياليصا » ، حفظها الله .

* * *

هذه هي الحكاية الرسمية لهياليصا ، كما روتها الصحف وتناقلتها الألسنة في ذلك الوقت .

لكن صديقتنا « هياليصا » هذه ، ما لبث ان نبت لها ذَنَب طريف ، لا تكتمل حكايتها بدونه .

وهو ان القائمين على إقامة النصب ألغوا عمل المستراح او أوقفوا استعماله ، قبيل انتهاء الأعمال فيه .

وهذا ما زاد في الطين بلّة ثانية : لأن روّاد المستراح حملوا على روّاد الإصلاح ، لأن « قضاء الحاجات » من أهم ضرورات الحيـــاة .

وتقول الحكاية ان رجلاً من إحدى قرى منطقة صيدا هبط الى المدينة ، في أحد الأيام ، ولاذ الى حيث كان المستراح — حسب جاري عادته — وحانت منه التفاتة فرأى رجلاً آخر من أبناء قريته ، يلوذ بالقرب منه .

وحدث ان كان هذا من شعراء الزجل : فوصف واقعة الحال ، قال :

ترقينا يا بو سمرا وصرنا « نقضيها » برّا
الحاضر أخ .. من الماضي والقادم أخ .. وأخ ..

* * *

وشاعت هذه الردّة على ألسنة العامّة من أبناء القرى ، وصاروا ، كلما سمعوا بمشروع جديد من مشاريع الإصلاح ، تكهّنوا بما سيكون ، قياساً على ما كان ، وبحثوا عن قول مأثور يعزّزون رأيهم بواسطته ، فلم يجدوا على ألسنتهم غير :

الحاضر أخ .. من الماضي والقادم أخ .. وأخ ..

لا بتوفيني! ولا بتعفيني ؟

❖

في الأوساط الشعبية البيروتية قول مأثور قديم هو : « لا بتوفيني ! ولا بتعفيني ؟ »

وقد وقفت موءخراً على حكاية هذا القول المأثور ، وهي تقول ان رجلاً ادّعى ، أمام أحد القضاة ، ان له مبلغاً مستحقاً من المال في ذمّة رجل آخر ، وانه كلما حظي به وطالبه بالمبلغ ، ماطل وراوغ وما زال على هذا المنوال ، منذ وقت طويل .

وعندما مثُلَ المدّعى عليه أمام القاضي سأله اذا كان يقرّ ويعترف ان المدّعي له في ذمّته مبلغ مستحق من المال ، فأجاب بالايجـــاب .

فسأله القاضي عن مبرّرات عدم الدفع حتى الآن ، فأجاب :

– « الحقيقة يا سيدي ان المدعي لا يطالبني الا عندما يكون المبلغ غير متوفّر معي ، فاذا توفّر المبلغ معي بحثت عن المدعي في كل مكان فلم أعثر به » .

فسأله القاضي : « وما هو الحلّ ، اذن ، في نظرك ؟ »

قال : « الحلّ بسيط جداً يا سيدي ، وهو ان تأمر بسجن المدعي حتى يتأمّن المبلغ معي . فأجيء في الحال وأحظى به بسهولة وأدفع المبلغ اليه بالكمال والتمام ، لأني حريص جداً على تبرأة ذمتي معه ، ولا توجد وسيلة أخرى لضمان إراحة ضميري أمام الله وامام حضرتكم » .

قال القاضي : « هذا حق » . وأمر بسجن المدعي ريثما يتأمن المبلغ . فعرض المدعي ، عندئذٍ ، اسقاط دعواه مقابل إعفائه من السجن ، فرفض المدعى عليه قبول هذا العرض ، فنظر المدعي اليه وقال : « لا بتُوفيني ! ولا بتعفيني » ؟

فصارت عبارته قولاً مأثوراً ..

مَاحَكَّ جلدك غير ظِفرك!

❖

يحكى أن رجلاً من كرام القوم: كان عنده ابن وحيد رباه مرفي الدلال، حتى بلغ سن الشباب، فكثر حوله الأصدقاء والأحباب. وكان كلما غاب ورجع قال لوالده: «اليوم ربحت صديقاً جديداً».

فسأله أبوه يوماً عن عدد أصدقائه، قال: «عندي أكثر من مئة صديق، كل واحد منهم يفتديني بحياته».

وفي إحدى الليالي، رجع الابن من السهرة: فوجد أباه ما زال سهران مضطرب الأفكار، قال: «يا ابني، وقع ما لم يكن في الحسبان، رأيت رجلاً يدخل حديقتنا: تحت جنح الظلام. فخرجت اليه. فهجم عليّ فعاجلته بضربة عصا. فسقط جثة هامدة».

وتنهد الرجل واستطرد: «هذه إرادة الله، وقد لففت

جثة القتيل بحرام ، ولبثت أنتظر عودتك ، لتذهب وتحضر نفراً من أصحاب النخوة ، من بين أصدقائك الكثيرين ، لينقلوا الجثة الى مكان بعيد ، لإبعاد الشبهة عنا » .

فقال الإبن : « ولا يهمّك ! عندي مئة صديق ليوم الضيق »

ومضى ، وطرق باب أقرب صديق ، وأخبره بما حدث . فقال هذا : « يا ليت في إمكاني أن أساعدك ، لانني ، بعدما تركتك ، في المساء ، وقعت وفكشت رجلي » .

فتركه وأوصاه أن لا يخبر أحداً بما جرى . وقصد صديقاً آخر ، فقال : « يؤسفني ان والدتي مريضة ولا أستطيع أن أتركها » .

فتركه وأوصاه أن لا يخبر أحداً بما جرى ، وراح يطرق أبواب الأصدقاء ، وكلما طرق باباً ، هب صاحبه مسرعاً ، ظناً أن هنالك دعوة إلى وليمة ، أو ما أشبه ذلك ، حتى اذا علم بما جرى ، بادر الى عذر ملفق .

وقبيل الفجر رجع الابن خائباً ، وقال لأبيه : « أخيراً ، تذكرت المثل الدارج ، الذي كنت دائماً تردده على مسمعي : « ما حكّ جلدك غير ظفرك ! » فقم إذن ، نحمل جثة القتيل ، أنا وأنت ، ونلقيها في مكان بعيد » .

قال الأب : « عندما وجدتك تأخرت ، خشيت ان يدهمنا الصباح ، فوضعت القتيل في بئر البيت ، فاذهب يا ابني ونمْ الآن ، حتى مساء غد » .

وقبل أن تشرق شمس ذلك النهار ، كان كل صديق قد أخبر زوجته ، وكل زوجة أخبرت أمها ، وكل امرأة أخبرت جارتها ، وكل جارة ظنت أنها أول من ألمّ بالحقيقة : « أنا أقول إن القتيل هو « فلان » ... لا ، لا ، القتيل هو « فليتان » ... لا فلان ولا فليتان ، انه لا شك « عليتان » .

واستيقظت القرية ، ذلك الصباح ، قبل جاري عادتها .

وقبل أن يرمي صديقنا ، بطل الحكاية ، عقب سيكارته التسعين ، ويرشف آخر شفة من فنجان قهوته الثامن والثلاثين ، بعد وقوع الحادثة ، طوقت بيته ثلة من رجال الدرك ، ودخل القاضي والضابط والنائب العام ، والمختار ، ورئيس البلدية ، والناطور والكاهن ، إضافة الى بعض المتطفلين والمتطفلات والشامتين والشامتات .

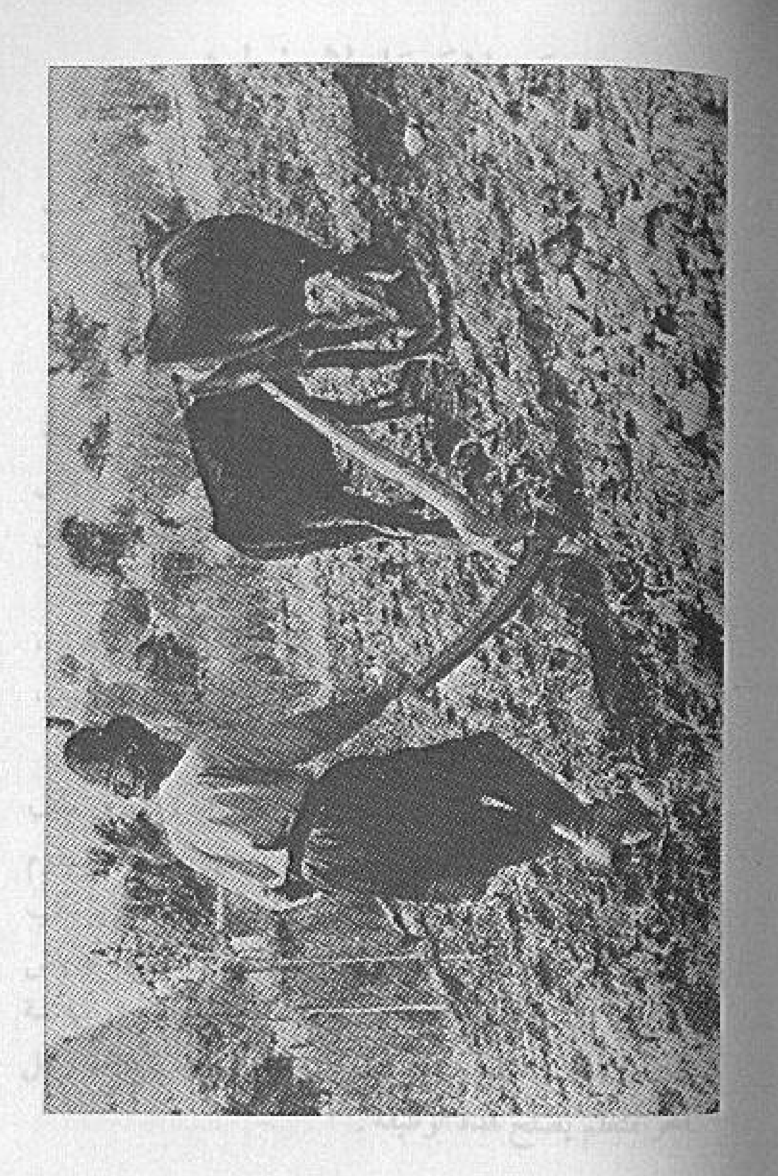
وتقدم القاضي وقال : « نحن نعلم أنك رجل عاقل نظيف السيرة ، وليس لك سوابق ، ولا بد أن تكون فعلت ما فعلت دفاعاً عن النفس ، فإذا اعترفت بالحقيقة وأرشدتنا الى مكان الجثة ، حاولنا أن نساعدك على قدر الامكان » .

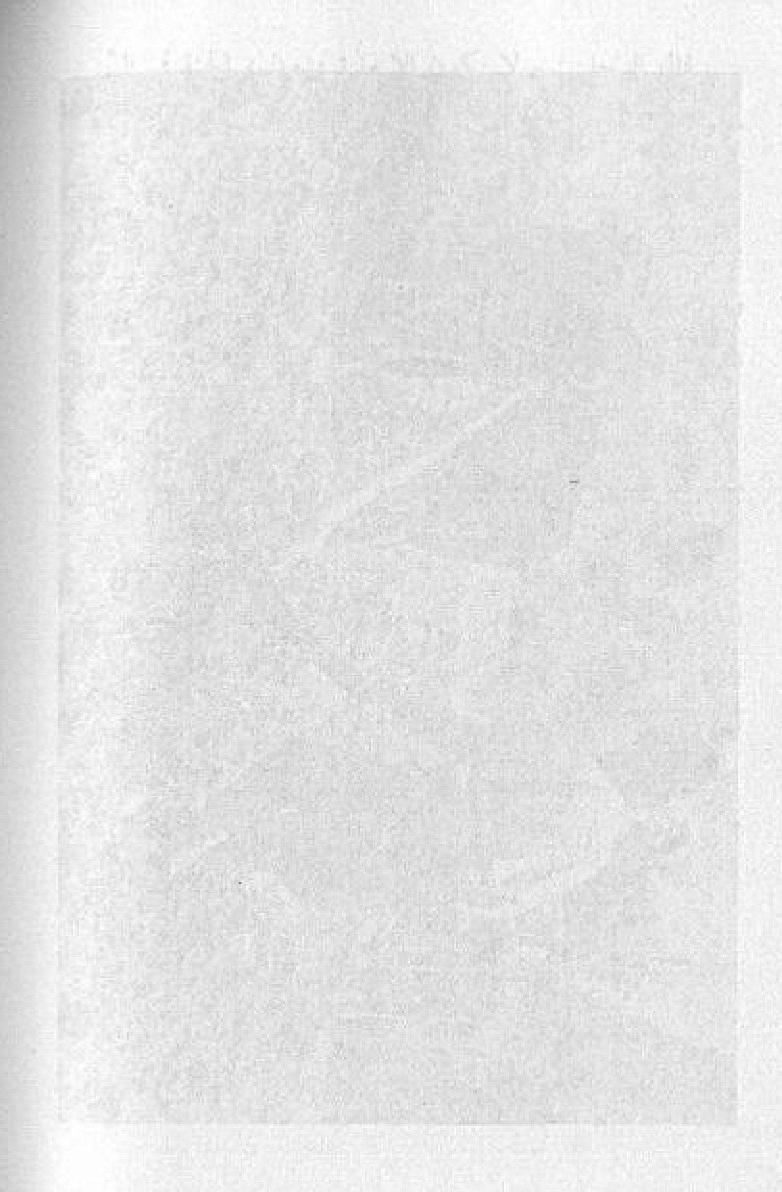
قال الرجل : « لا يكون إلا ما تريدون ، الجثة في البئر . مروا مَن يأتي بها الى غرفة الطعام . وهناك تسمعون إفادتي » .

ونزل إثنان من رجال الدرك الى البئر وجاؤوا بجثة ملفوفة بشرشف وحرام . ودخلوا بها الى غرفة الطعام ، فإذا الصحون والكاسات ، ومختلف المازات والمقبلات . في أماكنها على المـــائدة .

وتقدم الرجل ، ونضا الغطاء عن الجثة ، فإذا هي خروف معلوف مسلوخ مجروم مهيأ للضيوف .

فذهل القوم ، وسألوا الرجل عن المناسبة . فقال : « هذه الوليمة أعددتها لأصدقاء ابني ، الذين كنت أنتظر نخوتهم في هذه الليلة ، ومجيئهم لمساعدة ابني ، في إخفاء الجثة المزعومة . أما وقد تخلفوا جميعاً ، وحضرتم أنتم من غير ميعاد ، فليأخذ كل واحد منكم مكاناً الى مائدتي ويستمع الى قصتي ... ومَن أراد أن يعتبر فليعتبر ! » .





مَن لا يَعمَل لا يخطِئ

❖

في زمن المتصرّفية ، وفي عهد رستم باشا بالذات ، تمّت بعض الإصلاحات الإدارية ، وكانت جميعها تراعي الاعتبارات الطائفية المحلية .

هكذا كان ما هو كائن الآن .

وعلى هذا الأساس تم تنظيم جهاز إدارة قضاء البترون ، فكان نصيب طائفة معيّنة فيه ، من الأقليّات ، وظيفة « باش كاتب » محكمة البترون ، وأسندت هذه الوظيفة الى « عبّاس أفندي » من الطائفة المنوّه عنها .

وبعد مدّة ، رُفعت شكايات في حقّ عبّاس المذكور ، الى متصرّف جبل لبنان ، الذي أحالها بدوره الى عمّون عمّون ، قائمقام البترون ، للتحقيق والإفادة .

فأجرى عمّون عمّون التحقيق ، وأفاد انه لم يجد في ملف عبّاس أفندي ما يوجب الإدانة ، لأنه ، حتى الآن ، لا يقوم بأي عمل ، لكونه أمّي لا يقرأ ، ولا يكتب ، ولذلك لم يرتكب اي خطأ ، مع العلم ان عبّاس أفندي يُشغل وظيفة « باش كاتب » المحكمة ، بالنيابة عن طائفته ، لأن هذه الوظيفة مخصّصة لهذه الطائفة ، ولا يوجد بين أبناء هذه الطائفة رجل آخر متعلم يصلح لهذه الوظيفة .

وتمت في الحال كتابة الكتاب ، على أن تتم حفلة الزواج ، بعد إستكمال الإستعدادات ، وأتيح عندئذ للشاب ان يجتمع بالفتاة ، فاذا هي بالحقيقة فتاة عمياء ... وليست تلك الماكرة الحسناء ، ولكن لات ساعة مندم ، انه لا يستطيع ان يتراجع ، فوالد الفتاة هو قاضي القضاة ، ولا حول ولا قوة ...

ورجع الشاب الى دكانه ، ومحى عن بابه عبارة : « كيد الرجال غلب كيد النساء » وكتب : « كيد النساء غلب كيد الرجال » ... وجلس يفكّر في مصيبته .

واذا بالصبية الحسناء تُقبل عليه من بعيد ، وعلى ثغرها ابتسامة الظفر ، فدخلت وقالت : « إذن اعترفت أن كيد النساء غلب كيد الرجال » .

قال : « ولكن بعد فوات الأوان » .

قالت : « ولكني لن أتركك في محنتك ، وخلاصك في يدي ، فقاضي القضاة ابن حسب ونسب وهو من أشراف المدينة ، وما عليك الا ان تبحث عن جماعة من النَّوَر تطلب منهم أن يزعموا أنك ابن خالتهم ، وان يحضروا ، بهذه الصفة الى بيت القاضي ، يوم العرس ... وعلى الله الاتكال » .

وهكذا كـــان .

وبعد ان اكتمل عقد المدعوين في مجلس قاضي القضاة ، من رجال دين وأشراف وأعيان ، وصل موكب النَوَر بطبل وزمر ورواقيص وأهازيج . فهرع الشاب الى ملاقاتهم والترحيب بهم : « اهلاً وسهلاً بأولاد خالتي ! » فهتفوا : « تتهنا يا ابن خالتنا » .

فذهل قاضي القضاة والذين كانوا حوله ، وسألوا الشاب : « ومَن هم هؤلاء وما شأنك معهم ؟ » .

قال : « هؤلاء أولاد خالتي ، من جماعة النَوَر ، وأنا مثلهم نـــوري « أندبوري » ، ولا أستطيع ان أنكر حسبي ونسبي ، ولذلك دعوتهم الى حفلة عرسي » .

فصاح به قاضي القضاة : « كفى ... ونحن لا نستطيع ان نتخلى عن حسبنا ونسبنا قمْ انصرف ، سامحك الله ، مع اولاد خالتك ، وابحث لك عن زوجة من بناتهم ، وعفــا الله عما مضى » .

من ذلك الوقت صارت جماعة النور « أولاد خالتنا » .

الوَيل لِلذي تلدُهُ أُمه في طريقِ الهند[1]

❖

في عهد طفولتي كان « أبو ناصيف » ناطوراً في قريتي . وكانت بريطانيا العظمى في أوج عظمتها . فراجع أبو ناصيف جميع اختباراته ومعلوماته واستنتاجاته وحكم أن كل ما يحدث على وجه الأرض من خير أو شر ، لا بد أن تكون للإنكليز إصبع فيه .

في أحد الأيام ، بينما كان العم أبو ناصيف يصعد درجات السلم الى سطح بيته ، زلت به قدمه فسقط وكسر رجله .

وجاء والدي يزوره ، قال : « الأخ أبو ناصيف ليس من الذين يسقطون عن السلالم ، فلا بد أن تكون « فيكتوريا » ملكة

---

(١) يقال ان نابليون جرّد حملته المشهورة الى بلادنا ليحتلها ، فيقطع طريق الانكليز الى الهند . ولذلك كانوا يسمون بلادنا « طريق الهند » . وهنالك قول مشهور ، هو : « الويل للذي تلده امه في طريق الهند » ، لأن تنازع المصالح الاستعمارية يبقيه عرضة للموت والهوان .

الإنكليز « دفشته » من عن السلم ، ويجب ان نرفع « عرض حال » احتجاجاً الى ضابط درك مرجعيون ، حسن آغا القرەشلي » .

ومرّ نصف قرن وأكثر على الحادثة ، وبدأت في لبنان موجة جديدة من « تدفيش » الرجال عن السلالم والسطوح ، وراحت جثث الضحايا تتهاوى بين الأنقاض وتحت الجسور .

ووجدت نفسي في لندن ، ذات صباح ، أمشي الى حيث تقودني خطاي ، فوصلت الى ساحة قصر « باكنغهام » حيث تعيش الآن جلالة ملكة الانكليز ، وجلست أستريح على مصطبة من الرخام ، أمام نصب عظيم . ثم حانت مني التفاتة الى وراء ، فاذا الملكة السابقة « فيكتوريا » تتربع على سدّتها ، في جلالها وأبهتها .

وفطنت ، حينئذ ، الى ما فعلته جلالتها مع العم ابو ناصيف ، منذ نصف قرن وأكثر ، فنهضت ورفعت اليها ظلامتي ، قلت :

— يا صاحبة الجلالة ، أنا قادم من « طريق الهند » حيث غبار حوافر فرسانك ، عبر مئات السنين ، ما زال يحجب عنا رؤية نهاية الطريق ، وقد جئت الآن متظلماً باسم المرحوم أبو ناصيف ، وكل أبو ناصيف آخر ، من مرحومين وغير مرحومين ، المدفوشين المهشمين ، المكسورة أرجلهم « وخواطرهم » في هذه الأيام ، في بلادي .

ليش الناس جْناس جْناس ؟

❖

« أبو الياس » حاجب عتيق معتق ، وطأت قدماه كل عتبة من عتبات الدولة . ولما تعبت ساقاه من الوقوف على أعتاب الرؤساء ، وكلّت رجلاه من السعي بين مختلف الإدارات ، كان قد بلغ الرابعة والستين ، فاستغنت الدولة عن خدماته ، فنفض عن قدميه غبار المهانة ورجع الى قريته موفور الكرامة ، تاركاً وراءه ردّة من الزجل اشتهرت في دنيا الوظائف ، ولا سيما بين الطبقات الدنيا من الموظفين ، قال :

ليش الناس جناس جناس   مختار بأمرو بوليـاس
وفي جحاش بتركب عَ الناس   في ناس بتركب عَ جحاش

هَزّه الشوق، فدَحرج مِن تحت لفَوق

❖

كان الشيخ ابراهيم اليازجي يدرّس الأدب العربي في المدرسة البطريركية، في بيروت، وكان يُصرّ على التكلّم بالفصحى، ويُحبّذ السجع ويثمل من رنين القوافي.

وحدث ان زلّت قدم أحد الطلاّب، بينما كان يصعد أحد أدراج المدرسة.

وجاء أحد زملاء الطالب يخبر الشيخ ابراهيم بما حدث، قال: « تدركب زميلنا فلان عن الدرج وكسر رِجله ».

فلامه الشيخ ابراهيم، لأن كلمة « تدركب » دخيلة على لغتنا الشريفة.

وبعد قليل حضر طالب آخر وقال: « تشقلب فلان من على رأس الدرج حتى أسفله وكسر رجله ».

فعنّفه الشيخ ابراهيم لأن كلمة « تشقلب » عاميّة وليست ابنة حسب ونسب .

ثم حضر طالب ثالث وقال : « زميلنا فلان ، هزّه الشوق فتدحرج من تحت الى فوق » .

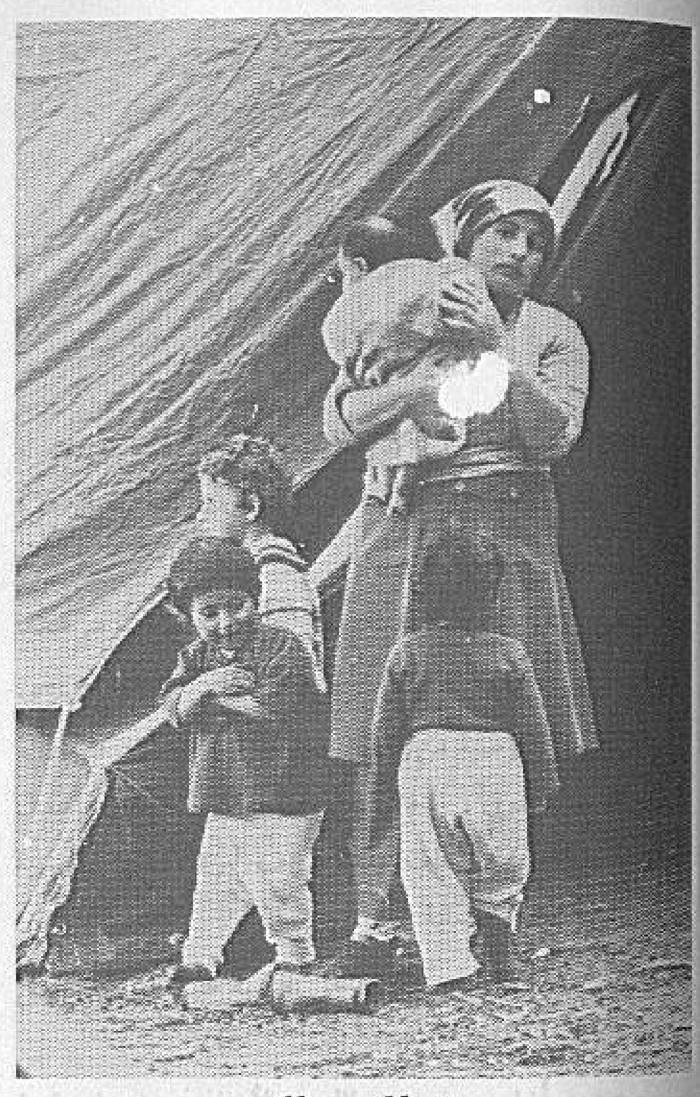
فصاح الشيخ ابراهيم : « إسكت يا قليل الذوق ! »

فجرت عبارة الطالب الأخير وجواب الشيخ ابراهيم مجرى الأمثـــال .

وانتشرت هذه القصة بين علماء ذلك العصر ، أمثال الشيخ يوسف الأسير والشيخ ابراهيم الحوراني ، والمعلـــم بطرس البستاني ، وسواهم ، حتى بلغت مسامع علاّمة عصره الدكتور فانديك .

يقال ان الدكتور فانديك ألقى خطبة ، بعد ذلك ، في إحدى المناسبات ، في الكلية السورية الانجيلية — قبل ان يصير اسمها « الجامعة الأميركية في بيروت » ، في موضوع « العلم والارتقاء » ختمها بقوله :

— « تدركبوا .. تشقلبوا ... تدحرجوا ، ولكن دائماً من تحت الى فوق » .



اللهُ خَلَقَ ... وَرَزَقَ



حسب نوايَاكم ترزقون

❖

كان الياس تمّوز من كبار المحامين، وبالإضافة الى قدرته على ترويض المواد القانونية ، كانت عنده مهارة فائقة في سرد الأحاديث والقصص الواقعية .

ومن أشهر قصصه قصته مع احدى العصابات ، عندما كان يتعاطى مهنة المحاماة في دمشق ، في عهد الانتداب الفرنسي

فبناءً على توصية من احد زعماء سوريا في ذلك الزمان ، تولّى الاستاذ تمور ، الدفاع عن جماعة من المتهمين بأعمال الشقاوة . لقاء بدل أتعاب مقداره الف ليرة ، منها اربعماية ليرة « معجّل » وستماية ليرة « مؤجّل » .

فقبض المعجّل ، وأخذ يلاحق القضية حتى استحصل على حكم ببراءة الجماعة مما أتهموا به .

وعندما أخلي سبيلهم ، طالبهم الأستاذ تمور بدفع قيمة

المؤجل ، فقالوا انهم ، والحالة هذه ، لا يملكون اية نقود ، الا انهم أقسموا « بشرفهم » و « وجدانهم » ان يدفعوا المبلغ خلال اسبوعين – اذا وفّقهم الله .

وبعد بضعة أيام حضر الاستاذ نمور الى بيروت لقضاء عطلة آخر الاسبوع ، وبينما هو عائد الى دمشق ، اعترضت سيارته في وادي الحرير ، عصابة كانت تقطع الطريق وتوقف السيارات العـــابرة .

وأخذ أحد أفراد العصابة – وكان ملثّماً حتى لا يعرفه أحد – يأمر الركّاب بالترجّل ، فيفتّش جيوبهم واحداً بعد الآخر .

وامتثل الاستاذ نمور ، ووقف ينتظر دوره ، فاذا بالرجل الملثّم يقترب منه ، ويقول له بصوت خافت :

– « ما تآخذنا ، سيدنا ، بدنا ندبّرلك المبلغ ، حتى تعرف انك تتعاطى مع ناس أشراف » .

وفي اليوم التالي ، حضر أحد أفراد العصابة ودفع المبلغ الى الاستاذ نمور وقال :

– « الله أعطانا حسب نوايانا ... كل ساعه العازه إلك » .

إقتضى إعلام سعادتكم

❖

منذ حداثتي أعطاني عشراني لقب « ابو علي » . فلازمني هذا اللقب وطغى على اسمي ، في بعض الأحيان .

وحدث ان كلّفتني ادارتي – عندما كنت موظّفاً – بمهمة لدى مرجع ذي شأن ، وعندما وصلت استقبلني رجل يعرفني باسم « ابو علي » ، وأدخلني على المرجع المذكور ، بهذا الاسم . فحكّ هذا جبينه ، ثم قال انه يريد ان يعيد النظر في الموضوع وسيراجع الادارة ، في ما بعد ، بهذا الشأن .

وبعد يومين تلقّت الإدارة كتاباً من المرجع المذكور يقول فيه : « ارسلتم سلام الراسي ، فوصل الينا ابو علي ، اقتضى اعلامكم بالواقع » .

وكان توفيق توما ، كلما روى هذه القصة يعقّب عليها بقوله : « فحلْ محلْ » لم يحضر ... وحضر خلافه ، اقتضى إعلام سعادتكم » .

ثم يروي توفيق توما الذي كان مستشاراً لمصلحة التعمير قصة هذا القول المأثور :

ـ كان قسطنطين الخازن قائمقاماً في جزين ، في عهد المتصرّف واصا باشا ، الذي ارسل اليه كتاباً ، في أحد الأيام ، يبلغه فيه انه ـ أي المتصرّف ـ قبل استقالة كاتب القائمقامية ، وعيّن كاتباً آخر ... فحل محل الكاتب المستقيل .

لكن بالنظر لعدم وجود شَدّة على « فحل محل » للدلالة قرأها القائمقام « فحلْ محلْ » ورفع بعد يومين تقريراً الى المتصرّف يقول فيه : « فحلْ محلْ » المذكور لم يحضر ، لكن حضر خلافه ، اقتضى إعلام سعادتكم » .

في حراسة مار الياس

❖

حدث في عهد الانتداب ، ان وضع الجيش الفرنسي يده على قطعة أرض مشاع في خراج قريتي ابل السقي ، لترويض خيول الخيالة فيها ، ومُنع اهالي القرية من رعاية مواشيهم فيها.

فقلت : « هذا لا يجوز . يجب ان أرفع احتجاجاً الى المستشار الفرنسي في مرجعيون ».

واصطحبت خمسة رجال « كمالة عدد » من أبناء القرية . أوصيتهم ان يتركوا لي الكلام ، فلا يقولوا شيئاً .

ودخل سكرتير المستشار على سيده ، قال : « سلام الراسي مع وفد من ابل السقي » .

كان المستشار على جانب من الدهاء . فأذن بدخول الوفد ، ولم يأذن لي بالدخول ، على اعتبار اني لست من أصحاب المواشي ، مثل سائر رفاقي . فامتعضت وخرجت غاضباً ،

وقلت في نفسي : « نجحت حيلة المستشار ، فماذا عسى ان يقول هؤلاء ، وقد أوصيتهم ان لا يقولوا شيئاً ، فيا خيبة أملي ! ».

لكن بين هؤلاء كان شيخ ، من فلاحي القرية ، يتكلم بأمثال ، ويستشهد بحكايات ، فانتزع المبادرة ، قال :

ـ كان في قريتنا رجل عنده بقرة يجرّها كل صباح ويطلقها في الحرج المجاور ويقول : « في حراستك يا مار الياس ! » فيتولّى مار الياس ـ لسلام على اسمه ـ حراسة البقرة ، فترعى في الحرج حتى المساء وتعود سالمة الى صاحبها .

وفي أحد الأيام ، طلب الرجل من زوجته ان تتولى أخذ البقرة الى الحرج . وأقبل المساء ولم ترجع البقرة ، فقلق وسأل زوجته ماذا قالت عندما أطلقت البقرة .

أجابت : « قلت » : « في حراسة الله ! » .

فصاح الرجل : « يا قليلة العقل ، راحت البقرة » .

قالت : « ولكن ، أليس الله أعظم من مار الياس ؟ »

قال : « بلى ، ولكن اذا توكّلنا على مار الياس ، وأهمل شأن البقرة ، نشتكي عليه الى الله عزّ وجلّ . اما اذا توكّلنا على الله ، وتغاضى عن حراسة البقرة ، فإلى مَن نشتكي ؟ » .

وأضاف الرجل في كلامه الى المستشار : « نحن في هذه الأيام ، اذا وقع علينا ظلم ، نرفع ظلامتنا اليكم . اما اذا وقع علينا الظلم من جانبكم ، فإلى من نتظلّم ؟ » .

القسم الخامس

داوي الحاضر بالحاضر

وقلت في نفسي : « نعمت حيلة المستشار ، فماذا عسى يقول هؤلاء ، وقد أوصيتهم ألا يقولوا شيئاً ، إلا تحية [illegible]

لكن بين هؤلاء كان شيخ [illegible] من فلاحي القرية ، [illegible] أمثال ، ويستشهد بحكايات ، فانبرى بالمبادرة ، قال :

— كان في قريتنا رجل عنده بقرة يتركها كل صباح في المرج المجاور ويقول : « في حراستك يا مار [illegible] » لتولي مار الياس — السلام على اسمه — حراسة البقرة في المرج حتى [illegible]

وفي أحد الأيام ، طلب الرجل من زوجته أن تقود البقرة إلى المرج ، وأقبل المساء ولم ترجع البقرة ، فقال [illegible] وجهه ماذا فعلت بالبقرة ؟

أجابت : « تركتها في حراسة الله ! »

فصاح الرجل : « يا قليلة العقل ، وأخذت البقرة ؟ »

قالت : « ولكن ، أليس الله أعظم من مار الياس ؟ »

قال : « بلى ، ولكن إذا توكلنا على مار الياس في شأن البقرة ، نشتكي عليه إلى الله عز وجل ، أما إذا [illegible] على الله وتغاضى عن حراسة البقرة ، فإلى من نشتكي ؟ »

وأضاف الرجل في كلامه إلى المستشار : « وكذلك في الأيام ، إذا وقع علينا ظلم ، نرفع ظلامتنا إليكم ، أما إذا وقع علينا الظلم من جانبكم ، فإلى من نشتكي ؟ »

صَارَتْ مَعْقولَه

❖

الصديق الدكتور رامز عوده ، مهما عبس الزمان لا تبرح عنه إبتسامته . كنتُ يوماً أزوره ، فدخل رجل وبادره بخبريّة سخيفة . تعليقاً على خبريّة أسخف منها ، فقال الدكتور : « صارت معقوله ! » ثم انعطف نحوي وقال :

– يُحكى ان رجلاً من إحدى قرى منطقة مرجعيون الداخلية هبط يوماً الى مدينة صيدا ، لقضاء إحدى الحاجات ، وفي المساء قفل راجعاً في اتجاه قريته .

لكنه ما ان بلغ محلة « المصيلح » فوق الزهراني ، حتى التفت الى الوراء ، فرأى الشمس توشك ان تغطس في ميـاه البحر ، وبدا له الأفق مشتعلاً فوق المياه ، فقال : « لعل البحر يحترق ! »

وعندما وصل الرجل الى قريته اجتمع اليه بعض رجـال القرية وسألوه عن آخر الأخبار . فقال : « احترق بحر صيدا ! »

فالتفت القوم : بعضهم الى بعض وتساءلوا كيف يحترق البحر ، هذا نذير شؤم ، لعله من علامات آخر الأوقات ، بعضهم صدّق والبعض الآخر لم يصدّق ، قالوا : « الخبريّة غير معقولة ! »

لكن لم يلبث ان وصل رجل آخر قادماً من صيدا ، فتألّب الجماعة حوله ، وقالوا : « سمعنا ان بحر صيدا احترق ، فهل هذه الخبريّة معقولة ام غير معقولة ؟ »

قال : « معقولة ام غير معقولة ، انا لا « أحطّ بذمتي » ، لكن ما لا شكّ فيه انني رأيت رجلاً ، قرب الشاطىء ، يبيع سمكاً مشوياً » .

فقالوا : « صارت معقوله ! » .

إن صَحّ المريض ، مِن الله وَإن مَات ، مِن شكر الله

كان الدكتور شكر الله كرم طبيباً وعالماً : مارس مهنة الطب بنجاح في منطقة مرجعيون ، حيث تمرّس بمعالجة المرضى من أبناء الطبقات الشعبيـة المتخلّفة : وتعمّق في درس مشاكلهم الاجتماعية .

ومما يروى أنه ألقى يوماً محاضرة في أحد المؤتمرات الطبيّة ، في بيروت ، عن مشاكل الطب بين أبناء الريف ، فذكر كيف تتداخل الخرافات مع العلاجات : وتطغى الأوهام على الحقائق في بعض الأحيان .

وأوجز بالتالي ، محاضرته بعبارة واحدة : قال :

– « إن صحّ المريض : من الله ، وان مات ، من شكر الله » .



العاقله والمجنونه ، عند زوجها بالمُونه

كِف شرك عني، وما عليك مني

❖

رجل « مقروق » من إحدى القرى ، أراد أن يتزوج ، فأعرضت عنه جميع بنات القرية ، لأن خبره كان معروفاً عند الجميع .

ثم توفق أخيراً ، بزوجة « بنت حلال » من قرية بعيدة ، ما لبثت ان عرفت الحقيقة ، لكنها مثل كل امرأة مستورة ، سترت ... واستترت .

وكان عند الرجل جار اسمه « أبو شخاروف » ، راح يصابحه كل صباح :

- يا جار ! خدامه تلزم

- يا جار ! بدي صغر خاطرك .

- يا جار ! الجار موصّى بالجار .

- يا جار ! المثل يقول : « اللي ما فيك تجا فيها ... داريها !

فضاق صدر الرجل أخيراً ، وقال لجاره : « إنت كيف شرك عني ، وما عليك مني » .

فجرت عبارة الرجل قولاً مأثوراً ، الى يومنا .

لكن المرأة اشتاقت ان اجار « أبو مخلوف » يعرف علة زوجها ، وهذا عار كل العار ، وقالت : « كم أنا مغبونة في هذه الوقعة الملعونة » .

وصارت كلما خلت بزوجها نفرت وكفرت وعفطت وشفطت ولعنت الساعة التي عرفته فيها ، فيأخذ في مداراتها ومراعاتها ، لكن بدون فائدة .

وكان عند الرجل صديق اسمه « أبو مصيلح » فقصده وشكا أمره اليه . ففكر « أبو مصيلح » قليلاً : وحكّ جبينه ، وتحسس شاربه ، وقال : « إبقَ هنا ، حتى أعود ، وعندئذٍ تذهب انت الى بيتك ، فتستقبلك زوجتك بالترحاب » .

ونهض « أبو مصيلح » في الحال ، وذهب الى بيت الرجل ، ووقف تحت الشباك ونادى : « يا بو قرق ... يا بو قرق ... »

فذعرت زوجة الرجل ، في الداخل ، وقالت ، ما هذه الفضيحة ! حتى أن جميع الناس في القرية يعرفون علة زوجي وينادونه « يا بو قرق » .

لكنها تمالكت أمرها وأطلت من الشباك ، فقال لها : « أين أخي أبو قرق ؟ »

قالت : « خرج منذ نصف ساعة » .

قال : « متى عاد ، قولي له : « حضر أخوك أبو قرقين ، ليخبرك أن أبو ثلاثة قراق خطب إبنة أبو أربع قراق ، لابنه أبو خمس قراق ... »

فانتبهت المرأة ، وراجعت أفكارها ، وانشرح خاطرها ، وقالت : « أبو اربع قراق ! ... وأبو خمس قراق ! والخير لقدام ... يا عمّي ! اللي الله متممّ سعادتها ، بيكون « بو قرق » زلمتها » !

يَاربّ شِيلنا ! يارَبّ حطّنا !
ياربّ خلّينا مِتل مَا "نحنا" !

❖

كان « عباس » يفضل ان يُقال عنه عبّاس « مجهول با قي الهوية » . لأن هذه الشهرة التي اكتسبها من تقارير رجال الشرطة في حقه كانت غالية على قلبه . الا ان تجار سوق سرسق اصطلحوا على تسميته عباس « العرق سوسي » . لأنه كان يبيعهم شراب « العرق سوس » منذ زمن طويل .

وفي غفلة من غفلات الزمان ، نام عباس فقيراً واستيقظ غنياً عندما أبلغوه خبر وفاة شقيقه في بلاد السَنيغال ، وانه صار وريث تركته البالغة عدة مئات من ألوف الليرات .

ففكر عبـاس ، أول ما فكر ، في سطل شراب العرق سوس ، قال : « هذا السطل اللعين علقته أربعين سنة في عنقي ، حتى أصابني ازورار في كتفي والتواء في قامتي » .

وتناول السطل وحطمه وداس عليه بقدمه متشفياً . وقال : « من الآن وصاعداً سأعيش « جالساً » في مجالس الناس . و « أنتصب قائماً » في مواقف الرجال . فلا أنحني بعد الآن ذات اليمين او ذات الشمال . تحت رحمة هذا السطل الثقيل اللعين » .

وعرّج في طريقه على أفخر محلات الثياب واشترى أثمن ما وقعت عليه يداه ، ورجع الى بيته ، وقال : « وهذا البيت الحقير ، الى متى أحتمله ؟ »

وخلال أيام قلائل ، استأجر شقة فخمة مفروشة ، وانتقل ليعيش فيها بالعز والكرامة .

وتذكر سوق سرسق فقال : « ذلك السوق الكريه ، الذي « أكل شققة » من رجليّ ... لن تدوسه قدماي بعد الآن » .

ثم فطن الى اصدقاء زمانه ، الذين كان يتسكّع معهم في غمرات الليالي وقال : « وهؤلاء عشران السوء يجب ان أخلعهم عني ، الواحد بعد الآخر ، كما خلعت ثيابي العتيقة ، وان أنتقي أصدقاء جدداً ، كما ينتقي الرجل ثياباً جديدة للمناسبات السعيدة »

والتفت أخيراً ، الى زوجته ، وقال : « وهذه المرأة المشؤومة ، انها بالنسبة اليّ الآن مثل الرقعة القديمة على ثوب جديد ... كانت رفيقتي في أيام شقاوتي ، وهي لا تليق بي في

عهد كرامتي ، وبقاؤها في عصمتي يذكّرني بزمن تعاستي . وكما انتزعت سطل العرق سوس من رقبتي ، يجب ان أنتزعها مما تبقى من حياتي ، وان أستبدلها بامرأة أحسن منها ، لضمان سعادتي » .

ثم قال : « إسمي في دفاتر الشرطة « عباس مجهول باقي الهوية » ، وهو عند تجار سوق سرسق « عباس العرق سوسي » . وكلا هذين الاسمين لا يليقـان بي بعد الآن ، يجب ان يصير اسمي « الحاج عباس » ، ومن الآن الى ان يحين موعد الحج يفرجها الله ! » .

وفي أحد الأيام اكتشف ان كمّ سترته الأيسر أطول من الكم الأيمن ، وان وركه الأيسر « مفلطح » خلافاً لوركـه الأيمن ، وصار يقف طويلاً امام المرآة ويحاول ان يخفض كفّه الأيمن وان ينفض وركه الأيسر ، ليحدث بعض التوازن في أعضاء جسمه ... وأقلقته هذه الظاهرة الجديدة حتى جفـاه الكرى .

وسهد في احدى الليالي ، وراح يستعرض ماضي ايامه ، وتذكر انه كان ، في بعض الأحيان ، يمزج شراب العـرق سوس ، بمياه غير نظيفة من احد حواويز المدينة ، فاستنكر بشاعة جريمته ، وفطن الى ان بعض زملائه ، بائعي شراب

العرق سوس انما كانوا يفعلون فعلته — لعلهم تعلموا منه — قال : « هذا لا يجوز مطلقاً ... جميع هؤلاء الغشاشين ، القليلي الدين يجب ان يقفوا عند حدودهم » .

ووعد نفسه أخيراً ، اذا وفقه الله : ان يرشح نفسه لعضوية البلدية ؛ فاذا صار عضواً : كرس حياته لمكافحة الغش ، وذلك تكفيراً منه عن خطاياه وذنوبه .

ولم تمر على هذه الحالة اكثر من ستة اشهر ، حتى بدأت تنتابه أوجاع مخيفة في ظهره وفي كتفه الأيمن وجنبه الأيسر ، وبدأ يطوف على عيادات الأطباء ويستعمل شتى انواع الأدوية والضمادات ، بدون جدوى .

أخيراً ، سأله أحد الأطباء . ماذا يشتغل ؟

قال : « لا أشتغل شيئاً ، فأنا رجل ميسور والحمد لله » .

فسأله : « وهل تعاطيت اي عمل جسدي في زمانك » .

فتنهد وقال : « كنت أبيع شراب العرق سوس في سوق سرسق ، طوال اربعين سنة ، كنت خلالها أعلق سطل الشراب في كتفي الأيمن وأسنده على جنبي الأيسر وفيه عشرون ليتراً من الشراب وأطوف به من الصباح حتى ... » .

فصاح الطبيب : « كفى ! ... لا يشفيك من أوجاعك غير سطل العرق سوس ، علّقه في كتفك ، حتى يأتي أجلك ! » .

شيْ لايقاً ينقال ، شيْ مش لايق

❖

أكثر شعراء الزجل في لبنان ليسوا من شعراء العامّة . إنهم من شعراء الطبقة الخاصة ، لكنهم ينظمون الشعر بلغة العامة . فقد حفظوا المتنبي والمعرّي وابن الروميّ ، ودرسوا منـــاهج الأدب الفرنسي وجاؤوا ينظمون الشعر بلغة العامة .

وهم يُبدعون أحياناً ، ويتألّقون في أشعارهم ، لكنهم لا يعبّرون عما يمكن ان يُسمى شعر العامة في لبنان . إنهم مثل شعراء الفصحى يتغزلون بالفراشات والنسائم والطيور والأزهار ، ويتحدثون بلغة الفجر والسحاب والسواقي والأنهار .

اما شعراء العامة ، فلا تهمهم هذه المشاهد ، وكل ما يهمهم الإنسان ، وما له علاقـــة بالإنسان كالمواقف والقيم والمفاهيم والمبادىء والأخلاق .

كان بطرس حشمه ، من الخيام ، واحداً من شعراء العامة ،

كان نصف أميّ ؛ لم يحفظ شيئاً للمتنبي ولم يكن يعرف شيئاً عن ابن الرومي ، وكان يستعمل أحياناً بعض الكلمات الفصيحة في شعره : فتجيء كالرقعة السوداء على الثوب الأبيض .

لكنه كان أصيلاً في شعره ، صادقاً غير متكلّف . قال يصف سوء حاله ، في مطلوع معنّى بقيت منه في الذاكرة الأبيات التالية :

ما بين حظّو وبين نحسو مدافشه
ومعافشه ومناتشه ومناهشه
بيقضي الحياة مهابشه بمهابشه
متضايقاً من نفسه ومضايق

* * *

نارو عسيس مدخّنه وخبزو عويص
لا لقمتو تشّت ولا فكّت مغيص
داغش طفاش ، ضايع مضيّع : حيص بيص
وتزناز عيشو معوكراً لمْ رايق

* * *

عايش لوحدو بعل يشكي من الظما
موحوح عَ مين يحك ظهرو ولواندمى
مشحشح عَ قولة « تاعْ » لَنّو بالوما
شي لايقاً ينقال ، شي مش لايق

بَـرَاعَـةُ الطّـلَب

❖

ما زال أساتذة الأدب ، كلما تكلموا عن « براعة الطلب » استشهدوا بقول الشاعر :

« إخواننا قصدوا الصبوح بيكـرةٍ
وأتى رسولهم إليَّ خصيصـا

قالوا : اقترحْ شيئاً نُجِد لك طبخه
قلت : اطبخوا لي جبةً وقميصا »

* * *

عاش في ابل السقي ، اواخر القرن الماضي ، شاعران زجليان أميّان لم يسمعا في زمانهما بما يسمى « براعة الطلب » في فنون الأدب : كان الأول ، بطرس جربس : ناطوراً . والثاني : بشير عزّام ، برّاك مطحنة .

وحدثت مناسبة فرح عند آل العبد الله : في الخيام ، فأرسل الحاج حسن العبد الله : رسولاً ، يدعوهما للمشاركة في مهرجان

الشعر الذي كان يقام غالباً في مثل تلك المناسبة ، فقال بطرس للرسول : « سلم على الأفندي وقل له :

شروالي جوخ « الماهوت » والأرنب مِنّو بيفوت
قـانيلو طنعشر جيبـه منشان حواش البلوط

وقال له بشير عزّام :

لزاقات مداّسي هرّوا والحج يطوّل عمـرو
لا حقيان بيسوى روح ولا بيسوى خالف أمرو

فأرسل الحاج حسن . شروالاً الى الأول ومداساً الى الثاني .

غـريـمـو انحـدَف

إمرأة مات زوجها مقتولاً ، منذ خمس عشرة سنة تقريباً ، عن صبي واحد وحيد . التقيتها أمس . في مجلس عام وسألتها عن إبنها ، قالت :

– « صار شبّ ، الحمد لله : وصار يلبس شروال بيّو »

فاحترت في جواب المرأة ، لأنها لم تكن خسيسة الى حدّ تخبئة ثياب زوجها . بعد موته ، خمس عشرة سنة .

لكن رجـلاً كان يجلس بالقرب مني ، انعطف صوبي ووشوشني :

– « بس غريمو انحدف من سنتين ، وانطفا خبرو » .

المرا بالبيت رحمه ... ولو كانت فحمه

❖

يُحكى أن رجلاً لبنانياً هاجر الى البرازيل ؛ وبعد عشرين سنة من الجهاد ، صار من الأغنياء ، وصارت تُراوده أحلام العودة الى البلاد .

وحدث أنه مرّ يوماً ، أمام مطعم تُديره امرأة هزيلة : لا تثير سحنتُها شهية الرجل الى الطعام ، ولا الى مطارحة الغرام ، فدخل وطلب منها أن تُحضر له طعاماً كما يريد ، فيدفع اليها ما تريد ؛ قال : « أريد بندورة معفّنة وبصلة مصنصنة ورغيف خبز مقرقداً وكأس ماء معوكراً ومُجلغماً » .

وظنته المرأة مازحاً ، باديء الأمر ، الا أنه أكد طلبه : فغابت المرأة قليلاً وعادت بطبق عليه الأكل المطلوب — بقدر الإمكان — ووضعته أمام الرجل ، وقالت : « أتريد شيئاً آخر ؟ »

قال : « نعم » ، إجلسي أمامي واشتميني و « تفتفي » على وجهـي » .

قالت : « ولكن ، هل يوجد بيني وبينك ما يوجب هذه المعـاملة ؟ »

قال : « لا ، لا ... جُل ما في الأمر أني وجدتك تشبهين زوجتي التي تركتها في لبنان ، منذ عشرين سنة ، وأنا اليوم في حيرة من أمري ، هل أعود أم لا أعود الى بلادي . وعندمـا رأيتك الآن تذكرت زوجتي ، وذكرت كيف كانت تعاملني ، قبلما « هجهجتني » الى هذه البلاد ، لذلك ، أطلب منكِ الآن ، أن تمثّلي معي نفس ما كانت تفعله معي عندما كانت لا تطعمني الا البندورة المعفّنة والبصل المصنصن مغموساً ومغمساً بالشتائم ، وبطراطيش لعابها المتساقط على وجهي ، كأنني امـام موكرة دبابير او زراقط .

وتنهّد الرجل وأضاف : « أرجوكِ أن تفعلي معي الآن ، مثلما كانت تفعل زوجتي في مثل هذه الحال ، لكي أشفى نهائياً من مرض التفكير بالعودة الى بلادي » .

* * *

منذ اكثر من سنة تفاقمت الأحداث في لبنان « فتهجهجت » أنا الآخر مع زوجتي ، الى البرازيل ، حاملاً معي حكاياتي وذكرياتي .

هناك فطنت الى هذه الحكاية .

ثم رحت أتخيّل شخصيّة بطلتها ، صاحبة المطعم . على حد تعبير عمتي ام شحاده : مقشوره ومقصوره ، سيقانها رقاق وكراعينها دقاق ، ثلثها مناخير وثلثينها شداق ، بلقا جلقا . نجّينا يا رب !

وصارت صورة هــذه المرأة الفذّة تزداد وضوحاً في خاطري وتتألق في مخيّلتي ، يوماً بعد يوم ، ولازمتني حتى صارت هماً من همومي ، فقلت : « قمْ ، إذن ، يا رجل وابحث عنها في رحاب مدينة « سانبولو » الواسعة الأرجاء » .

وخرجت وحدي أطوف ، من شارع الى شارع ، أجيل النظر هنا وهناك ، فحظيت بعدد وافر من اللبنانيين ، ولم أعثر على ضالتي المنشودة .

في أحد المنعطفات وقفت إزاء رجلين « يتجاكران » ، بالعربية — بلهجة لبنانية أصيلة — في موضوع ذي شأن ... أقسم الأول « بسيّدة التلة » على صحة كلامه ، فتزمهر الثاني وتعنقر وأقسم يميناً قاطعة « بسيدة حريصا » ...

فاطمأن قلبي ، لأن « سيدات لبنان » تمتد بركتهن الى ما وراء الحدود وتحرس اللبنانيين أينما كانوا .

وفي مكان آخر ، سمعت إمرأتين تتشاتمان ، من شرفة الى

شرفة : عبر الشارع – هذا في سانبولو – قالت الأولى : « كل عمرِك تعملي عمايلك ، وترخي شمايلك » .

فقالت الثانية : « روحي لِمِّي غسيلك عن صنوبر بيروت ، يا مرة بوقرون » .

وتوالى إطلاق الشتائم والمعايير ، في اجواء الطلق أكثر من نصف ساعة . فانتشيت وقلت : « ما أجمل تشاقيع بلادي ، حتى الشتائم والمعايير فيها فن وأدب » .

وفطنت عندئذٍ الى ما كنت أسميه « أدب التشاقيع » وهو من أبلغ أنواع الأدب ، عند العامّة في لبنان . ومن أعرق فنون الفولكلور على الإطلاق .

وشعرت بارتياح ووعدت نفسي ، اذا رجعت بخير الى بلادي ، أن أضع دراسة مفصلة عن « أدب التشاقيع » ، أليس اللبنانيون هم الذين اخترعوا « مسبة الدين » . إنهم يسبون الدين كلما أرادوا أن يفشّوا خلقهم ... لكن ذلك كان قبل ظهور فلاسفة العلمنة ، في لبنان .

ثم هنّأت نفسي ، عندما تحققت ان اللبنانيين ، أينما رحلوا ، نقلوا معهم حضارتهم المميزة ، ونشروها فوق السطوح .

وانعطفت أخيراً ، ناحية « روا أوغيستا » ، ووقفت أمام

باب دكان ، في واجهته خبز مرقوق وعدة مراطبين من الليئة المكبوسة بالزيت ، وفي صدر المحل عرمة من الصفيحة اللبنانية بين طبقين من أقراص الكبة المقلية .

فقلت ، أيمكن إلا أن يكون صاحب هذا المحل لبنانياً ، ومن « كفرقوق » مثلاً . وتوكلت على التقادير ودخلت وحييت بالعربية ؛ فرد التحية بمثلها شيخ غشمشم كان يتقعفر في الداخل على صندوق من الخشب . وبدأ حديثه معي بعفوية :

— محسوبك يوسف طعمه من خريبة حاصبيا . عمري فوق الثمانين : كنت بألف خير ، بس لما ماتت « المرحومه » انكسر جانحي ... الأرمل لشو عيشتو ... لما نويت على السفر من الخريبه ، قال الوالد : « غير ممكن تسافر ، الا اذا صاروا « إجريك أربعه » ... العزّابي رسنو فلتان وتعبو للنسوان . بلا طول سيره .... تزوجت بنت خالتي وجينا على سانبولو ، رحمة الله عليها ... هي أول مَن نصب الصاج وخبز الخبز المرقوق بالبرازيل » .

وتنهد الرجل ، ثم أدنى أذنه من فمي ، ليسمع جوابي ، وسألني : حضرتك متزوج يما أرمل ؟ .

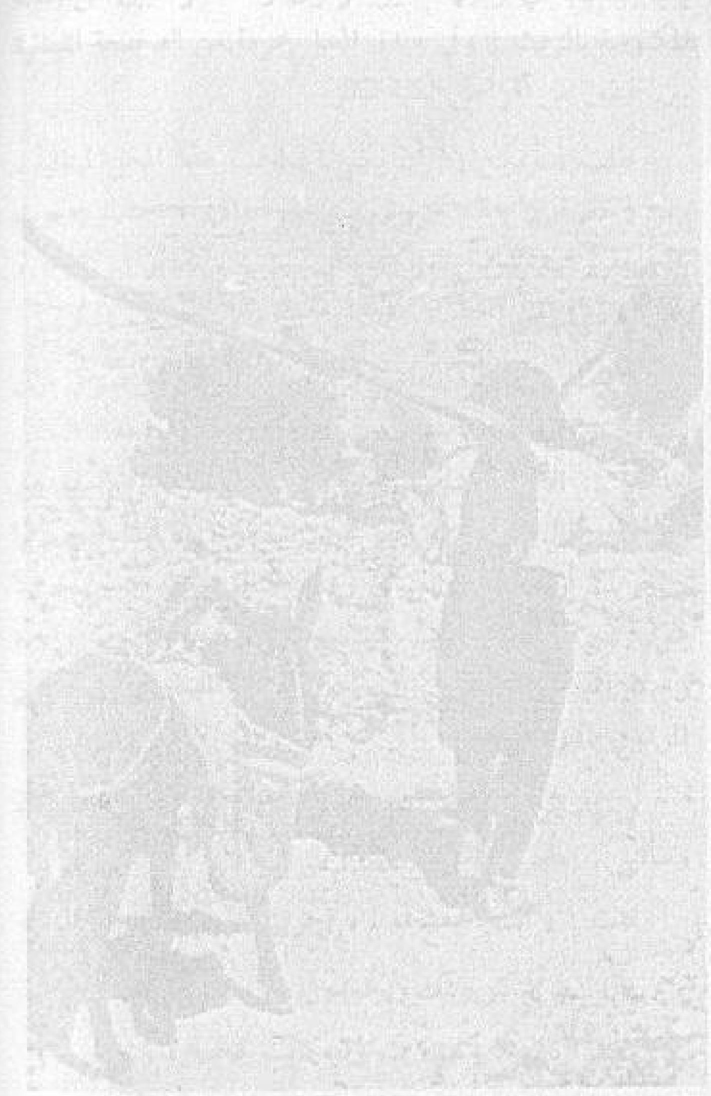
قلت : « أنا والحمد لله ، « إجريي أربعه » .

قال : « إشكر ربّك واحمدو ، المرحوم جدي كان يقول :

« المرا بالبيت رحمه ... ولو كانت فحمه » .



« حامل ثقله » عن حمارو



سَلِّم شاربك للناس تنداس

❖

في ظني لو تفرغ أحد مفكرينا ، منذ نصف قرن ، وعلى مدى بضع سنوات ، وراح يرتاد القرى اللبنانية ، ويجالس شيوخها وعجائزها ، ويسجل حكاياتهم وأمثالهم وأساطيرهم وخرافاتهم واصطلاحات أقوالهم ، لكان عنده كتاب ، أو كتب ، في مستوى « كليلة ودمنة » .

ففي كل قرية من قرانا ، كان يعيش « بيدبا » لبناني يحفظ جانباً من تراثنا العريق . وقد غيّب الموت الآن ، أكثر أولئك الشيوخ والعجائز ، وغابت الى الأبد ، مئات الحكايات والمأثورات التي كانت تتألف منها حضارتنا الأصيلة .

« أبو درغام » واحد من هؤلاء الشيوخ ، حفظه الله : انه « بيدبا » قريته ، نزح عنها الى بيروت ، غير أن جذور أفكاره ما زالت تعيش في البيئة التي نشأ فيها واعتنق مفاهيمها .

فلكل مقام عنده كلام . ولكل كلام ، مَثَل . ولكل مَثَل قصة . ولكل قصة ، مدلول .

. . .

في مجلس عام ، جرى الحديث ، عن رجـل أمين يأتمن أصدقاءه ، ويسلّم أموره الى جماعة ربما أوقعوا به ضرراً ، فقال أبو درغام : « يرحم بي مَنْ قال : « سلّم شاربك للناس تنداس ! » .

قلنا : « وكيف يكون ذلك ؟ » قال :

– زعموا أن رجلاً كان عنده قرد وهرّ يعيشان في بيته ، وحدث أن القرد قام يتجول في أرجاء البيت ، في غياب صاحبه ، فحظي بقدر فيه لبن ، فكشف غطاءها والتهم حاجته منها ، ورجع الى حيث كان الهر جالساً يغسل وجهه بلعابه ، ويملس شاربيه بكفيه ، فحيّاه بحرارة ، وقال :

« سبحان الذي خلق الكائنات وجعل الهر أجمل المخلوقات وقديماً قيل : « أجمل ما عند الهر شارباه » . وقد فضّل الله الرجال على النساء وميّزهم بشواربهم . ولو كان لي مثـل شاربيك ، يا أخي « أبو نعمـان » ، لأعلنت نفسي ملكاً الوحوش . ويقول أحد كبار الحكماء : « اذا أردت أن « تعنقر » شاربيك ، فما عليك الا باللبن ، تدهن به شفتيك ، وتمرمغ

شعرات شاربيك ، فتصير مثل الأسد – إسم الله عليك – فإذا دخل صاحبنا الآن ورآك حيّاك وبيّاك وأكرم مثواك » .

وخرج القرد وعاد بقليل من اللبن « مَرْمَغ » به شفتي الهر ، وراح وغسل يديه واستراح مطمئناً الى عمل يومـه .
فيما وقف الهر أمام المرآة . فرأى شاربيه الأبيضين ، أجمل ما تراه العين ، وحَسُنَ الأمر عنده ، فقال : « لا شك في حكمة أخي القرد واخلاصه ، بقليـــل من اللبن رفع مكانتي وأثبت حصانتي » .

ولم يلبث صاحب البيت أن دخل ورأى ما حل بقدر اللبن . فالتفت الى شوارب الهر ، وصاح : « هذا أنت يا قليـــل الشرف » . وتناوله برفسة ألقته خارج الباب .

ويضيف أبو درغام ، بإسلوبه الأنيق العريق : « وعندما شعر الهر ، بدنو أجله ، بعد عمر طويل – « تُورّثوا عمره » – جمـع أولاده ، وأولاد أولاده ، وأولاد أولاد أولاده ، وأوصاهم أن لا يأتمنوا الناس ، وأن يصونوا شواربهم عن أصدقائهم ، وأن لا يأكلوا لبناً مدى الحياة .

لذلك – يقول ابو درغام ، إن بعض طوائف الهررة ، ما زالت حتى الآن ، إذا وضعتَ أمامها لبناً ، تهمّ بالتهامه ، ثم تفطن الى وصية جدها المرحوم « ابو نعمان الهر » فترفع رأسها وتأنف من اللبن .

ويقال إن الهرّ وَدّع الحياة ، ببيت من العتابا ، أنشده على مقام الفراقيات ، حفظه أبناؤه بعده مدى الحياة ، قال :

نزل دمعي على خدّي ، ولا باس

عاكسرة خاطري وذلّي مع الناس

« سلّم شاربك للناس ، تنداس »

قَلّوا المخلصين من الصحاب

* * *

ويتعمّق « ابو درغام » في الكلام عن الهر ، فيقول انه منذ جرى له ذلك مع القرد صار كثير الحذر واسع الحيلة ، لا يثق بأحد ، ولا يخلص لأحد .

ويُحكى أن سيدنا سليمان — عليه السلام — كلف الهر والكلب مهمة خاصة ، وهي أن يقتفيا أثر ملكة سبأ ، بعد عودتها الى بلادها ، وان يأتياه بأخبارها .

وتشاور الهر والكلب في المهمة الموكولة اليهما ، فقال الهر : « ما دمنا لا نعرف تماماً ، في أي طريق عادت ملكة سبأ ، فَمِنَ الأصوب أن يمضي كل واحد منا في طريق . وحتى لا يضيّع أحدنا الآخر ، نجعل بيننا علامة ، وهي أن يرشّ الواحد منا قليلاً من بوله ، كلما قطع مسافة معينة ، في مكان ظاهر

الى جانب الطريق . بهذه الوسيلة يعرف الواحد منـــا أين عبر رفيقه ، من رائحة بوله .

ومضى الكلب في طريقه ، وقبض الأمر جداً ، وصار كلما قطع مسافة رفع فخذه ورشّ من بوله على نبتة قائمة الى جانب الطريق . في حين سلك الهر طريقاً آخر ، مطمئناً الى براعة حيلته ، وصار يحفر التراب ويطمر بوله جيداً ، ليخفي رائحته ، وهكذا يستطيع الهر ان يحصي تحرّكات الكلب ، ولا يستطيع الكلب ان يعرف شيئاً عن اثر .

ويضيف أبو درغام ان الكلب ما زال ، حتى الآن ، كلما مرّ بنبتة في الطريق « شمشم » رائحتها أولاً ، لعلها تحمل أثراً من رفيقه الهر ، ثم لا يلبث أن يرفع فخذه ويرش على النبتة قليلاً عن بوله . أما الهر فما زال ، كذلك ، يطمر بوله في التراب ، الى يومنا ، حتى ينطفىء خبره عن الكلب .

وكي لا تبقى هذه القصة بدون ذَنَب ، أنا أتبرع لهـــا بذنب من عنـــدي ، فأجزم ان أخانا الهر رجع أولاً وأخبر سليمان بما كان من خبر صديقته ملكة سبأ ، فكافأه فأعطاه حق الإقامة معه في قصره ، يأكل من طعامه وينام في سريره ويرقد مع زوجاته ويلعب مع أولاده . وما زال الهر يتمتع بامتيازاته حتى الآن .

أما صديقنا الكلب : فإنه لطيبة قلبه ، قلق على مصير رفيقه الهر ، وأضاع وقته في تنسّم أخباره ، بدون فائدة ، ثم رجع يائساً فوجد الهر نائماً ناعماً في حضن سيده سليمان . وهذا هو سبب العداوة بين الكلب والهر ، حتى يومنا هذا .

ومَن يُنكر صحة كلامي فليأتني بأفضل منه .

أنا بعْرف شغْلي

يروي رجل دين محترم ، في مذكراته ، قصة سائح سُرقت مخلاة فرسه في جزين ، فقال لمن كان حوله : « اذا لم يُرجعوا المخلاة قبل المساء » انا بعرف شغلي ! »

وبلغ الأمر مسامع فرحات بك ناصيف أحد كبار وجهاء جزين في القرن الماضي ، فقال : « لعل الرجل يعني ما يقول وربما كان في إمكانه ان يسبب لنا بعض المتاعب » . وكلّف أحد رجاله ، فاشترى مخلاة جديدة أخذها الى السائح المذكور وقدّمها اليه واعتذر عما حدث ، ثم سأله ماذا عنى بقوله : « انا بعرف شغلي » .

قال السائح : « عندي خرج كنت سأقصه وأجعل منه مخلاتين ، فاذا سُرقت الواحدة استعملت الثانية ! » .



قبرت حماتها ، ونفّقت بنيّاتها ، وقعدت ومدّت حريّاتها

[illegible]

حطّط عن جحشتك



« الحاج قعدان » : يقعد « مدقور الخاطر » على مصطبته : في هذه الأيام ، لأنه ما كاد يدعس في السبعين من عمره حتى فقد بصره ، فصار نصف رجل ، لأن الإنسان : « نصفه قشع ونصفه سمع » - كما يقول المثل - وعندما سالته عن حالـه أجاب :

- « من كثرة ما حوحشت أفكار وسمعت أخبار شقعتها جميعهـا في رأسي أكثر من اللزوم ، انفخت جراب عقلي وطفشت « مية الزرقا » على عيوني » .

فقلت : « وهذا ما أصابني بالذات ... حاولت تقـوية بصيرتي على حساب بصري ، حتى كدت أفقد نظري » .

فهتف الحاج قعدان : « اذن ، انا وانت من مقلع واحد » ! ثم استطرد : « الله يجبرنا من عشرة « عميان القلوب » : وانا وانت بألف خير ! » .

أمس أردت أن أعرف أين « يدقر » عقل الحاج قعدان ، في هذه الأيام ، لأنني ، قلما عرفت رجلاً تجاوز الستين من عمره : الا كان عقله داقراً عند موضوع واحد معين ، يحور ويدور حوله ، ويرجع مرجوعه اليه .

وأنا واحد من أصحاب العقول الدواقر ، في هذه الايام — مثل الناس ولا باس — وموضوعي يعرفه الذين يعرفونني .

وعندما دخلت على الحاج قعدان : كان يصغي الى خطاب في الراديو ، فمدّ يده وأخمد نفس الخطيب وقال : « يا انا بلا عقل ، يما كل الناس بلا عقل ! »

وبدا لي ان الرجل صار يُنكر ويستنكر كل ما يسمعه من أقوال وأخبار ، في هذه الأيام ، حتى دقر عقله عند هـذه المشكلة ، وهي إما ان يكون جميع الناس فقدوا عقولهم : واما ان يكون هو المجنون الأوحد في هذا الزمان ، ولا يوجد عنده رأي وسط بين هذين الإحتمالين .

وأضاف الحاج قعدان : « لو كان في الإمكان ، ان يرى الإنسان عقله في المرآة ، كما يرى وجهه . لانتحر أكثر الناس من بشاعة عقولهم » .

. . .

اما جاري أبو شهوان ، فشأنه شأن الحاج قعدان : طَرِشت أذناه مؤخراً ، فصار كذلك ، نصف رجل : لكنه ، مثل بعض فلاسفة هذا الزمان ـ الذين يحاولون « قولبة » أقدامهم على قياسات أحذيتهم ـ يشكر الله على نعمة الطَرَش ، قال :

ـ « متى امتلأ عقل الرجل بالأسرار والأخبار ، واختمرت في رأسه التجارب والأفكار ، وكان الله راضياً عنه ، أنعم عليه بنعمة الطَرَش ، فيكفيه شر الإصغاء الى أقوال الأدعياء والسخفاء ... هكذا يستطيع الرجل ان ينصرف الى التفكير بما ينفعه في دنياه وفي أخراه » .

ومكثت جالساً لا أتكلم في مجلس الأخ ابو شهوان ، وأطلت مكوثي عنده لأفسح له في الكلام ، فافهم أين دقر عقله في محنته ، مع تقادم أيام شيخوخته ، قال :

ـ الرجل في بلادنا « كلما زاد عمره قل قدره » ، والسبب انه لا يعود يعرف حدّه فيقف عنده ، بل يتمادى في انتقاد تصرفات أولاده وأحفاده ، ويسرف في تقديم النصائح الرخيصة اليهم ، فيزهدون فيه ويأنفون من مجالسته » .

ويأخذ ابو شهوان مَجّة لها ضجة من فنجان القهوة ، ويضيف : « الختيار ، يا جار ، يجب أن « يُحطَط عن جحشته »

فسألته مُومئاً : « وكيف يكون ذلك ؟ » قال :

– يُحكى ان رجلاً في أحد أحياء المدينة ، كان على خلاف دائم مع زوجته ، ينسب اليها جميع المساوىء والعيوب ، حتى ذاع أمر خلافه معها في أنحاء المدينة .

ثم ماتت الزوجة ، فجأة ، وكان أصبح كهلاً يضرس من الحصرم ولا يطيق صبراً حتى يستوي العنب ، فشعر بوحشة ، رغم كل ما كان بينه وبين زوجته ، ثم اغتم غماً شديداً ، وصار ضميره يؤنبه على كل ما كان يبدر منه نحوها .

قال أخيراً : « من أجل راحة ضميري ، سأصرف بقية حياتي متجولاً من مكان الى مكان ، أتبرع بنصائحي الى الرجال ان يحسنوا معاملة زوجاتهم ، حتى تطول أيامهن معهم ، فلا يصيبهم ما أصابني بموت زوجتي » .

وهبط الى سوق المدينة ، واشترى جحشة رهوانية وبردعة لائقة مع خرج يضع فيه حاجات السفر ، استعداداً لبدء جولته الميمونة على رجال المدينة .

لكن يبدو أن أكثر رجال المدينة كانوا على خلاف مع زوجاتهم وكلٌ منهم يظن ان زوجته أسوأ امرأة على وجه الأرض ، ويتمنى لو وجد سبيلاً الى التخلص منها .

وحدث ان اجتمع عدد كبير من رجال المدينة وتداولوا نكباتهم مع زوجاتهم ، فنعى كل واحد منهم سوء حظه مع

زوجته ... وفطنوا أخيراً الى صديقنا الذي ماتت زوجته ، قالوا :
« ما أسعده رجلاً . رضي الله عليه . فخلصه من شؤم زوجته .
لكن لا بد انه ابتكر حيلة بارعة قضى بواسطتها عليها . فارتاح
منها... قوموا . اذن ! نذهب اليه ونلتمس منه ان يعلّمنا .
كيف نتخلص من زوجاتنا » .

وذهبوا ... فوجدوا الرجل يشدّ البردعة على ظهر جحشته
ويضع الخرج فوقهــا . فسلموا عليه وسألوه . أولاً . أين
يقصد . قال : « سأطوف على رجال المدينــة أسدي اليهم
نصائحي ان يحسنوا معاملة زوجاتهم . حتى تطول أيامهن ... » .

فصاحوا به : « لا . لا . » حطّط عن جحشتك ! » لسنا
في حاجة الى نصائحك » .

وصارت العبارة قولاً مأثوراً .

*

في تلك العشية . كنت أبحث عن خمور جديدة أضعها
في دناني العتيقة . وكان في نيتي أن أتمم جولتي على سائر
زملائي ، من أصحاب العقول الدواقر . فأرشف عن شفاههم
بعض معتقات أفكارهم ، بيد انني ارتويت من سلافة جاري
ابو شهوان . وقررت ان أحطّط عن جحشتي .

أطرف الأمثال

– سمعت في البرازيل مثلاً برازيلياً طريفاً ، فاغتصبته و « لبننته » ، لئلا تفوتنا طرافته ، قال : « اذا الفلاّح أكل دجاجه ، يمّا بيكون الفلاّح مريض ... يمّا الدجاجه ! »

– آخر مثل سمعته حتى الآن : « المرا : متى قبرت حماتها ونفقت بناتها ؛ تقعد وتمدّ جرياتها » .

– الأخ أبو معروف يُصرّ على ان أبلغ مثل هو : « إجا للعميان صبي ، قَوَقَروُلو عيونو بالبقبشه » .

إن مَاتت بنتو انسَترعِرضو

في كتبي السابقة أوردت عدة حكايات وأمثال تمثل وجهة نظر الأجداد والآباء في المرأة ، وهي تلقي ضوءاً على أسباب تخلف المرأة في بلادنا ، بالنسبة للرجل .

آخر مثل سمعته ، في هذا الموضوع ، أورده قائله ، في احدى المناسبات ، بكل عفوية ، كأنه احدى الآيات . قال :

« الفلاّح ، ان مات إبنو : بارتْ أرضو . وان ماتت بنتو : انسترّ عرضو ! »

بيعيش مِن البخشيش

❖

كان لي نسيب أنجب طفلاً وهرع يستشيرني ، قال : « ما رايك اذا علّمناه الطب ، انه سيكون أوّل دكتور في العائلة ؛ وهذا شرف عظيم » .

وعندما بدأ الصبي ينتصب على قدميه ، جاء الرجل وقال : « غيّرت رأيي ، الصبي طالع « شلقه من جبل » ، لازم إبعثو عالمدرسه الحربيه ، يمكن يصير جنرال » .

وعندما انطلق لسان الصبي ، علّمه أبوه نصف دزّينة من الشاقيع ، وناداني يوماً من بعيد وقال : « الصبي طـــالع « مجاكرجي » بدّي علمو المحاماة ، بيصير ياكل لقمتو من تعب غيرو » .

وفي أحد الأيام ، داهمني عند الفجر وقال : « الله هدانا عالخير ، لازم الصبي يصير خوري ، خزاة العين عنّو ، صوتو

بيفرط الجوزه ، اذا الله تممها معنا ، بدّك تشوف « الكبريالبسن تشقلب محادل السطوح » .

ولم يلبث الرجل ان تبعني الى بيروت : بعد عدة سنوات وقال : « ودّيناه عالمدرسه « صار يفكّ الحرف » ، ودقر ... بقيو علماتو أقلّ من فهماتو : لازم ندبرّلو شي شغله بالحكومه، بيعيش من البخشيش ! »

بَلَّش يقشّـِر



في البرازيل سألت عن شاب من أبناء قريتي : هاجر الى البرازيل منذ سنتين ، فقال لي أحد الأصدقاء : « بَلّش يقشّر »

ففهمت انه بدأ يشبع : لأن الجائع غالباً ، اذا مرّ قرب شجرة تين عرّج عليها وراح يأكل من أثمارها بدون تقشير : فاذا شبع بدأ يقشّر .

لذلك يقال عن كل فقير بدأت تظهر عليه مظاهر الشبع « بلش يقشر » .

لكي تطول أيام حياتك
خفِّف همومك وضاعِف اهتماماتك



كان عارف النكدي من رجال العلم والإصلاح . شاخ وبقي محتفظاً بسلامة جسمه وكمال عقله .

سألته يوماً عن حكمته في شيخوخته ، قال انه عندما أحيل على التقاعد ، في سوريا ، قصد صديقه الرئيس فارس الخوري وقـال له :

— « ها قد تقاعدتُ ، فماذا تنصحني ان أفعل في ما تبقّى لي من العمر ؟ »

قال الرئيس الخوري :

— « إفعل كما أفعل أنا ، بموجب حكمة الحكيم « فانديك » : « لكي تطول أيـام حياتك ، خفّف همومك وضاعِف إهتماماتك ! » لأن الهموم ترهق العقل والجسد ، ولا سيما متى

صار الرجل كهلاً ، اما الإهتمامات فإنها تجدد نشاطك الجسدي وتضمن صحة عقلك » .

وأضاف النكدي انه عمل بموجب نصيحة الرئيس فارس الخوري ؛ فحاول ان يخفف همومه . بقدر الإمكان ، ورجع الى بلدته « عبيه » وأنشأ الميتم الدرزي وجعله موضوع اهتماماته لما تبقّى من حياته .

• • •

ثم سألت الصديق رجا الحوراني عن إهتماماته ، في ما تبقّى له من حياته ؛ فقال :

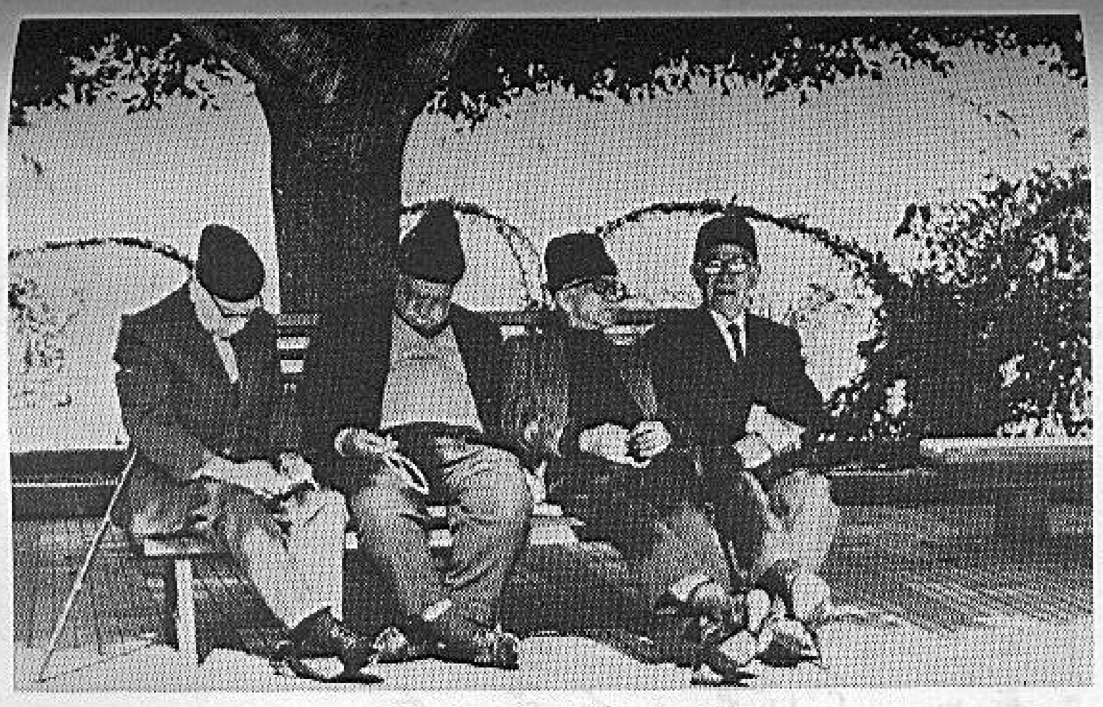
— « أهتم بالمطالعة ... والغريب أنني كلما ازددت علماً انفتحت أمامي مجاهل جديدة ؛ ولذلك جعلت حكمتي الأخيرة قول الإمام الشافعي :

كلّما أدّبني الـدّ ـهرُ أراني نقصَ عقلي
فإذا ما زدتُ علماً زادني علماً بجهلي

• • •

يقال ان المستشرق العلاّمة الأب « هنري لامنس » مدير مجلة المشرق وجريدة البشير ، في بيروت ، أصابه ، في أواخر أيامه ، شلل في يده اليمنى ، فقال :

— « لا إعتراض على إرادة الله ، لكنني كنت أشتهي ان يدهمني الموت وقلمي بين أناملي » .



ناطرين ! شو ناطرين ؟... مش عارفين



حِكمتي الأخيرة

❖

كُنّا نسمّيه « طوطح » لأننا قلما رأيناه الا راكباً على حماره مطوطحاً رجليه في الهواء .

أما أبونا الخوري الياس فكان يفضّل ان نسمّيه « تمتم » لأنه كان ، وهو راكب ، يتمتم بعبارات مبهمة ، لعلّه كان ، من قبيل المسايرة ، يمدّ حديثاً ذا شجون مع حماره الميمون .

وكان جارنا « ابو نبهـــان » يحلف بشرف حمارة النبي « بلعام » التي كانت تتكلم في قديم الزمان ، ان حمار الأخ « طوطح » يحرن ويقف اذا انقطع حبل الكلام او خفّت حرارة المجاملة بينه وبين صاحبه في أغلب الأحيان .

فوطبت عليه يوماً ، وسألته عن عمره ، قال : « من لما وقعت وكسرت وركي وصرت اتعاطى مع الحمير ــ أجلّ الله شأنك ــ صرت « هاري » « طنعشر حمار » ، ما عدا هذا الحمار » .

وابتسم وقال : « بس هذا يمكن يهريني قبل ما إهريه » .

وسكت برهة وقطب حاجبيه كأنه يحاول ان يفكّر ، بعد انقطاعه عن التفكير : في امور الحياة : منذ وقت طويل ، وأضاف :

— « كل مَن خلق علق ، والموت لا بد منه ، لكن بين موت وموت فرق كبير : زلمي بيموت « مهرّي » من كثرة الاستعمال ، وزلمي بيموت « مصدّي » من قلّة الاستعمال ! »

ثم نهر حماره ومشى تاركاً حبل الكلام للحمار ...

* * *

من عادتي : كلما نشرت كتاباً ، ان أجعل حكمته في نهايته. ولما كانت الأعمار في يد الأقدار ، لذلك ، جعلت حكمتي الأخيرة ، لما تبقّى لي من العمر : أن أموت مُهترئاً من كثرة استعمال عقلي وجسدي ، لا مُصدّياً من قِلّة الاستعمال !

مقـدّمة وخـاتـمة

داوي الحاضر بالحاضر

❖

تروي « ام العبد » إحدى عجائز « عين المريسه » ان الدكتور يوحنا ورتبات ، أحد مؤسسي معهد الطب في الجامعة الأميركية في بيروت ، في القرن الماضي ، كانت له صلات ودّ وصداقة مع أهل عين المريسه ، فيزور مرضاهم ، ويعالجهم مجاناً اذا اقتضى الأمر . وقد اشتهر بميله الى البساطة وعطفه على الفقراء .

ويُحكى انه جاء مرةً يزور أحد المرضى ، فوجد ان حالته تحسّنت ولا موجب لاستعمال الأدوية . فسأل ذويه ماذا فعلوا من أجله ، قالوا :

— « نحن فقراء « حكمتنا حسب مكنتنا » ، ولذلك « نداوي الحاضر بالحاضر » : فقد أحضرنا كميّة من البطيخ ورحنا نُطعم

لمريض منه باستمرار ، ونضع قشوره الباردة على جبينه الحار فيرشح جسمه بالعرق من أكل البطيخ ؛ ويتندّى جبينه بالبرودة من قشوره الباردة . بهذه الطريقة نعالج المريض اذا ارتفعت حرارته .

فقال الدكتور ورتبات : « فعلتم عين الحكمة » .

ومن ذلك الوقت صار الدكتور ورتبات ، كلما سمع عن مريض ارتفعت حرارته يقول : « داووا الحاضر بالحاضر ! » حتى صارت هذه العبارة قولاً مأثوراً .

ومما يُذكر ، ان القرويين ؛ اذا وقع أحدهم في أي مشكلة مستعصية وحاول ان يُنقذ نفسه بوسائل غير مجدية ، قالوا : انه « يسلّي الحمّة بقشور البطيخ » .

* * *

منذ ثلاث سنوات ؛ قررتُ ان أتفرغ لجمع مأثورات الكلام ، فأطوف في مختلف المناطق اللبنانية ؛ أقطف الحكايات والأمثال عن شفاه الناس ؛ لئلا تضيع . لكن الأحداث المتلاحقة حالت دون اتمام مهمتي .

وكان لا بد ، بالتالي من إجراء جردة حساب ، لما تبقى في دفاتري العتيقة من هذه المأثورات جمعتها في كتابي هذا من قبيل « مداواة الحاضر بالحاضر » ، او « تسلية الحمتة بقشور البطيخ » .

وقديماً قيل ان البطيخ له ثلاث فوائد : « بيحلي ويسلي ويبعشي الحمار » .

فلعل تجارة البطيخ ، في هـذه الأيام ، أوفر ربحاً من تجارة الكلام ، فلا يخرج البائع « شيح بريح » مع الشاري ، في أغلب الأحيان .

للمؤلف

- لئلا تضيع
- في الزوايا خبايا
- حكي قرايا وحكي سرايا
- نسيج بريح
- الناس بالناس
- حيص بيص
- الحبل على الجرار
- أدب وعجب
- الأعمال الكاملة ١/ ٣ مجلدات

فهرس

الموضوع	الصفحه

القسم الثاني

الموضوع الصفحة

القسم الثالث

الموضوع	الصفحة

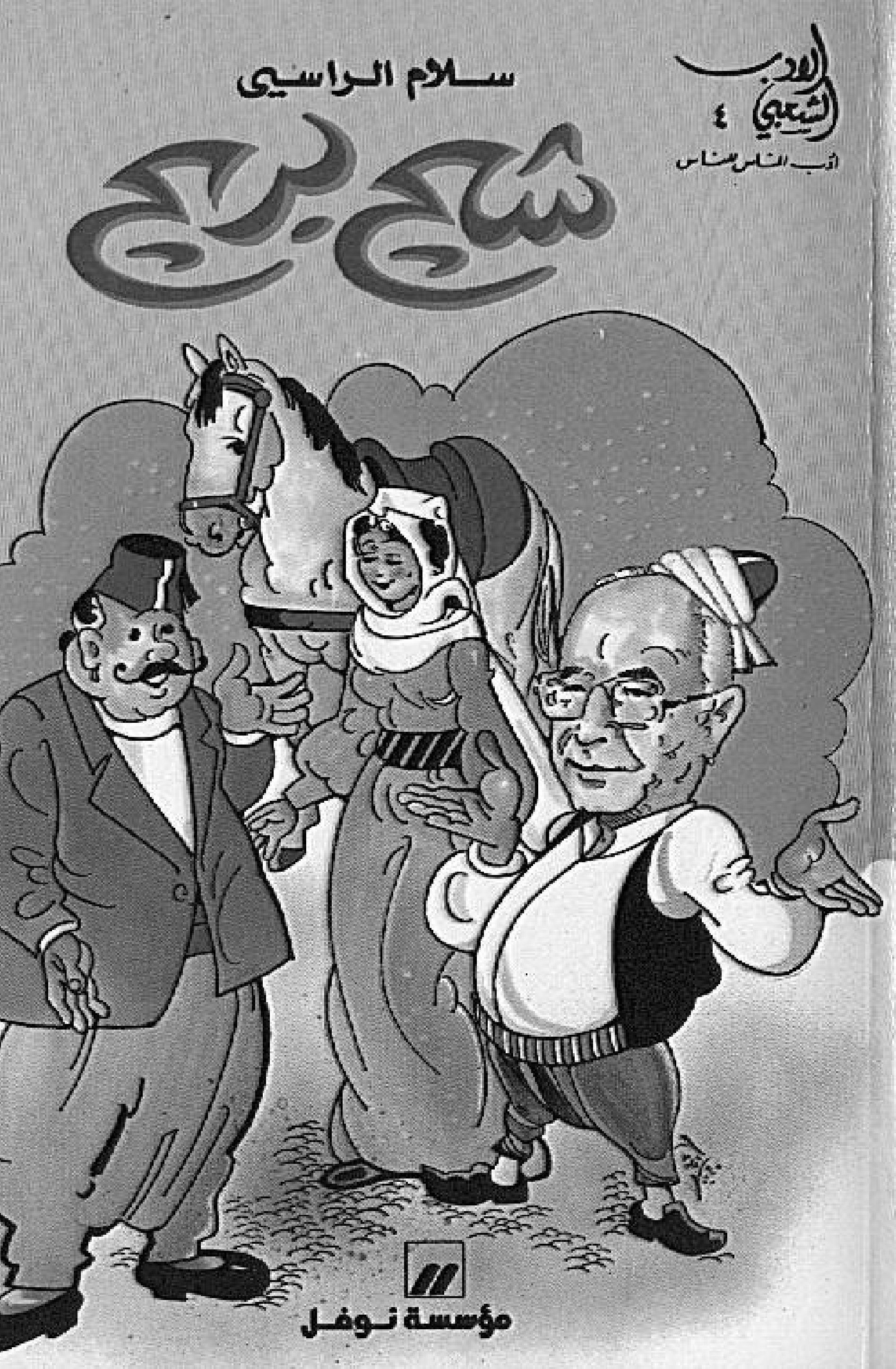
القسم الرابع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

القسم الخامس

الموضوع	الصفحة


الأدب الشعبي
٤
أدب الناس للناس
سلام الراسي
شيح بريح
مؤسسة نوفل



شيح بريح

يتابع سلام الراسي قطف الحكايات والخبريات والأمثال والأقوال المأثورة عن شفاه الناس. وهو يقدّم إلينا الآن، في كتابه هذا الجديد بعض قطافه الثمين.

وميزة سلام الراسي هي في أنه لا يبيع همومه إلى الناس، ولا يبثّهم شجونه، لأن جميع أبطال حكاياته وأخباريته هم أسياد مواقفهم، وليست عندهم متاعب ضاقت بها صدورهم، فراحوا ينفثونها في صدورنا.

ونحن يسرّنا ان نقدّم هذا الكتاب إلى قرّاء سلام الراسي، الذين عاشوا مع أبطال حكاياته في كتبه السابقة هنيهات عابقة بالمحبة والبساطة وانشراح الخاطر.

الناشر